ثانيًا :

البلاغة والنقد

البَلَاغَةُ النَّبَوِيَّة فِي أَحَادِيثِ الخَيْرِيَّة

(دراسة في الصَّحِيحَيْن)

إعداد الدكتور

ياسر عبد الحميد حسين عرقوب

أستاذ مساعد في البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

ملخص البحث

يتناول هذا البحث أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مما أورده الشيخان في صحيحيهما عن الخيْرِيَّة، ويحلل هذه الأحاديث تحليلا بلاغيا من خلال استعراض المقامات المتنوعة لحديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الخير، والسياقات المختلفة لتمكين معناه وسبل تحصيله في النفوس، محاولا إبراز الأسرار البلاغية الكامنة وراء هذه السياقات، من خلال تقسيم البحث إلى عدة مباحث حسب المقامات التي ورد فيها لفظ الخير مما يشمل جانب العبادات والمعاملات؛ ليدرك القارئ الكريم مدى حرص النبي صلى الله عليه وسلم على غرس الخير في النفوس، والحث على التنافس فيه ببيان خيرية بعض الأمور على بعض، وخيرية بعض الصفات على بعض؛ ليتسابق المسلمون إليه لينالوا شرف الاتصاف بهذا الوصف الطيب؛ فيعم الخير المجتمع بأكمله.

Research Summary

This study deals with the hadeeths of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) from the hadeeths of the two Sahihs on their saheeh on charity, and analyzes these hadiths by means of a review of the various positions of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) on good and different contexts in order to enable his meaning and means of gathering in the soul. The reader is aware of the extent to which the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) is keen to instill goodness in the soul and to encourage competition in it by making a charitable statement about some of the matters. Some, and the charity of some qualities on some; to race Muslims to receive the honor of the remedy of this description is good; good for the whole community.

المقـــــدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد،

فمن المعلوم أن ليس الهدف من البحث في بلاغة النبي ﷺ إثبات البلاغة له، أو إقناع أحد بها؛ فهذه من الأمور المسلّمة التي لا مرية فيها، وكذلك ليس الغرض البحث عن مآخذ وعيوب- حاشا لله ذلك-؛ فهو رسول " أدَّبه الله على عينه، ليُبلِّغ شرعه إلى خلقه، لذلك فقد أعطاه جوامع الكلم هبة منه وفضلاً، وألهمه المعاني والأفكار عطاءً منه وكرماً، ولهذا فقد سلم المنطق النبوي من العيوب، وحوى كل مقومات الفصاحة والبلاغة"[١]، وإنما الغرض من البحث في بلاغته ﷺ هو استشراف بعض الجوانب البلاغية التي تخدم المعنى، وتساعد على تمكينه في نفس المتلقي؛ فالبحث في بلاغة الرسول ﷺ هو "بحث في وسائل تمكين المعنى في نفوس المتلقين، وليس بحثا عن الجماليات والخيالات الممتعة -وإن كان هذا ليس بغائب في مجال الدراسة- لكنه ليس هدف الدراسة الأول؛ فلم يكن رسول الله ﷺ بالذي يقول ليُطرب ويُمتع، ولكنهﷺ يقول ليُعلّم"[٢]، ومن هنا اختلفت طبيعة البحث فيه عن طبيعة الدراسة في مجال الشعر والأدب عامة، ومن ثم كان وما يزال "الحديث النبوي نمطاً فريداً من الخطاب يجدر بوقفة متأنية مدققة، تأخذ نفسها بتتبع الظواهر

١ - أضواء على البلاغة النبوية: د/ إبراهيم الجعلي ص٢٠، مكتبة الرشد الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢ - مقدمة في نظرية البلاغة النبوية- السياق وتوجيه دلالة النص، د/ عيد بلبع صـ٥١، بلنسية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م. (بتصرف)

وتحليلها"[١]؛ من هنا أقبل الباحثون على كل ما يتعلق بسيرتهﷺ قولا وعملا، كل منهم يحاول أن يأخذ منها بطرف.

ولما كان الدين الإسلامي هو المؤسس لكل خير، الداعي لكل فضيلة؛ استحقت الأمة التي تنتمي إليه أن تكون عن جدارة خير الأمم كما قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فإنشاد الخير ومحاولة الوصول إليه هي ضالة كل إنسان سويّ، وقد جاءت الإرشادات إلى كثير من الطرق الموصلة إليه في القرآن الكريم كما في الآية السابقة وغيرها، كما حمل كلام النبيﷺ كثيرا من هذه الطرق؛ فهذه مهمتهﷺ ، سجل القرآن الكريم ذلك في مواضع كثيرة كما في قوله سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]؛ فكثرت في أحاديثهﷺ التوجيهات والإرشادات التي تبين الطرق الموصلة لتحصيل الخير، وتحث عليه؛ مما دفعني لدراسة الجوانب البلاغية في أحاديث الخيْريَّة، وقيدتها بالأحاديث الواردة في الصحيحين؛ لما وجدته من أحاديث كثيرة تخص جانب الخيْريَّة في البيان النبوي عامة يضيق مثل هذا البحث عن دراستها؛ ولعل هذا هو السبب نفسه الذي جعلني أقتصر على الأحاديث الواردة بصيغة الخيْريَّة دون الأفضلية.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، فكنت أعرض الحديث تحت مقام معين، وأبين غرضه، ثم أتتبع الوسائل البلاغية التي وردت من خلال السياق، وأبين كيفية تمكينها للمعني المراد من الحديث، ومناسبتها لتحقيق الهدف منه.

١ – مقدمة في نظرية البلاغة النبوية، د/ عيد بلبع صـ٤٥.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة: وتضمنت الحديث عن أهمية الموضوع، وبواعث اختياره، ومنهج السير في دراسته.

التمهيد: وجاء حول المقصود بالخيْر.

المبحث الأول: البلاغة النبوية في أحاديث خيْريَّة الصلاة.

المبحث الثاني: البلاغة النبوية في أحاديث خيْريَّة الإنفاق في سبيل الله.

المبحث الثالث: البلاغة النبوية في أحاديث خيْريَّة الجهاد.

المبحث الرابع: البلاغة النبوية في أحاديث الخيْريَّة في الآداب والمعاملات.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة.

والله من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

تمهيد: في المقصود بالخير

ورد في مقاييس اللغة لابن فارس: (خير) الخاء والياء والراء أصله العطف والميل، ثم يحمل عليه. فالخير: خلاف الشر ؛ لأن كل أحد يميل إليه ويعطف على صاحبه. والخيرة: الخيار. والخير: الكرم. والاستخارة: أن تسأل خير الأمرين لك. وكل هذا من الاستخارة، وهي الاستعطاف، ثم يصرف الكلام فيقال رجل خيِّر وامرأة خيِّرة: فاضلة. وقوم خيار وأخيار [١].

والخير وصف جامع لكل ما تميل إليه النفس وتستحسنه، وتحب أن تتصف به من معالي الأمور وأفضلها.

وذكر الإمام السيوطي نقلا عن القرطبي أن: خير وشر يستعملان للمفاضلة ولغيرها فإذا كانتا للمفاضلة فأصلها أخير وأشر، على وزن أفْعَل، وقد نطق بأصلهما، ففي الحديث: "تعارفون يوم القيامة سبعين أمةً، أنتم أخيرهم" ثم أفعل إن قرنت بمن كانت نكرة، ويستوي فيها المذكر والمؤنث، والواحد والاثنان والجمع، وإن لم تقترن بها لزم تعريفها بالإضافة، أو بالألف واللام. وأما إذا لم يكونا للمفاضلة فهما من جملة الأسماء كما قال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾: (البقرة: ١٨٠)، ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء: ١٩)[٢] .

وذكر العيني: أن الهمزة حذفت من خير وشر اللذين هما للتفضيل؛ لكثرة دورانهما في الكلام، حتى صار إثباتها فيهما شاذا[٣].

ويحمل لفظ الخير معاني كثيرة تتحدَّد تبعا للكلام الذي يرد فيه، فيكون وصفا للحال كما في قولنا: رجل خيِّر، وامرأة خيِّرة، أي فاضلة في صلاحها،

١ – معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ت/ عبد السلام محمد هارون، كتاب الخاء، باب: الخاء والياء وما يثلثهما، ٢/ ٢٣٢، نشر/ دار الفكر، عام: ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢ – عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد للسيوطي، ت/ د/ سلمان القضاة، ٢/ ٤٧٤، نشر/ دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣ – شرح سنن أبي داوود للعيني: ت/ خالد إبراهيم المصري، ٤/ ٣٦١، مكتبة الرشد، الرياض،ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

والجميع خِيار وأخيار[١]، ويأتي بمعنى التفضيل بين أمرين، ومنه: الِاسْتِخَارَةُ وهي: أَنْ تَسْأَلَ خَيْرَ الْأَمْرَيْنِ لَكَ[٢]، وعلى هذا المعنى وردت معظم أحاديث الخيْريَّة في الصحيحين. كما يأتي الخير بمعنى المال كما في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: إن ترك مالا[٣]، وغير ذلك.

ويفرق العيني بين الأفضلية والخيْريَّة، فيقول:" فَإِن قلت: هَل فرق بَين: أفضل، وَبَين: خير؟ قلت: لَا شكّ أَنَّهُمَا من بَاب التَّفْضِيل، لَكِن أفضل يَعْنِي كَثْرَة الثَّوَاب فِي مُقَابلَة الْقلَّة، وَالْخَيْر يَعْنِي النَّفْع فِي مُقَابلَة الشَّرّ، وَالْأول من الكمية، وَالثَّانِي من الْكَيْفِيَّة. وَتعقبه بَعضهم بقوله: الْفرق لَا يتم إلاَّ إِذا اخْتصَّ كل مِنْهُمَا بِتِلْكَ المقولة، أما إِذا كَانَ كل مِنْهُمَا يعقل تَأتيه فِي الْأُخْرَى، فَلَا، وَكَأَنَّهُ بني على أَن لفظ: خير، اسْم لَا أفعل تَفْضِيل. انْتهى. قلت: الْفرق تَامّ بِلَا شكّ، لِأَن الْفضل فِي اللُّغَة: الزِّيَادَة، ويقابله: الْقلَّة، وَالْخَيْر إِيصَال النَّفْع، ويقابله: الشَّرّ، والأشياء تتبين بضدها. وَفِي (الْعباب) الْفضل والفضيلة خلاف النَّقْص والنقيصة، وَقَالَ: الْخَيْر ضد الشَّرّ، وَقَوله: كَأَنَّهُ يبْنى على أَن لفظ: خير، اسْم لَا أفعل تَفْضِيل، لَيْسَ مَوضِع التشكيك، لِأَن لَفْظَة: خير، هَهُنَا أفعل التَّفْضِيل قطعا، لِأَن السُّؤَال لَيْسَ عَن نفس الخيْريَّة، وَإِنَّمَا السُّؤَال عَن وصف زَائِد وَهُوَ الأخيْريَّة، غير أَن الْعَرَب اسْتعْملت أفعل التَّفْضِيل من هَذَا الْبَاب على لَفظه فَيُقَال: زيد خير من عَمْرو، على معنى أخير مِنْهُ، وَلِهَذَا لَا يثنى

١ – كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: ٣٠١/٤، باب: الثلاثي المعتل من الخاء، ت/ د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، نشر/ دار ومكتبة الهلال.
٢ – مقاييس اللغة لابن فارس: كتاب الخاء، باب: الخاء والياء وما يثلثهما، ٢/ ٢٣٢.
٣ – الصحاح للجوهري: باب: الراء فصل الخاء(خير)، ٢/ ٦٥٢، ت/ أحمد عبد الغفور عطار، نشر/ دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٩م.

وَلَا يجمع وَلَا يؤنث"[١]، وهذا الكلام يحتاج إلى نظر؛ فتعليق الأفضلية بالكميات، وأنها تعني كثرة الثواب يتنافى مع ما ورد في كثير من الأحاديث، ولنأخذ مثلا قولهﷺ:" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»[٢]. ، فمعنى خيْريَّة الصفوف، أي أكثرها أجرا وأعلاها فضلًا[٣]، وهذا يتنافى مع ما ذكره العيني، ويبدو لي– والله أعلم– أن مفهوم الخيْريَّة أعم وأشمل من مفهوم الأفضلية؛ إذ الأفضلية لا تكون إلا فيما زاد عن الواجب والأصل، أما الخيْريَّة فتكون فيما ساوى الأصل وتكون فيما زاد عنه أيضا.

والخير نوعان: خير مطلق وهو ما يكون محبوبا في كل الأحوال، وعند كل أحد، كخيْريَّة الصلح، وخيْريَّة حسن الخلق وغيرها.

وخير مقيد وهو: أن يكون الشيء خيرا لواحد شرا لآخر، كالمال مثلا يكون خيرا لمن يحسن التصرف فيه، ويكون شرا لمن يطغيه، فخيْريَّته لا تكون في كل الأحوال. والله أعلم.

*****

١ – عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني: ١/ ١٣٦، ١٣٧، نشر/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢ – صحيح مسلم– كتاب الصلاة، باب: تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، ح (٤٤٠)، ٣٢٦/١، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي–بيروت.

٣ – الكوكب الوهاج والروض البهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج لمحمد الأمين العلوي الشافعي،٢٤٩/٧،نشر/ دار المنهاج، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٩م.

المبحث الأول

البلاغة النبوية في أحاديث خيْريَّة الصلاة

توطئة: الصلاة من أهم الأركان التي اعتنى بها الشرع الحنيف، ومن أكثر الأمور التي تردد الحديث عنها في القرآن الكريم والسنة المطهرة، حتى إن المولى سبحانه عندما أمر بها في كتابه قال في آيات كثيرة: **(أَقِيمُوا الصَّلَاةَ)**، ولم يقل: أدوا الصلاة؛ لأن الأمر ليس أمر أداء، وإنما إقامتها على الوجه الأكمل الذي يليق بهذه العبادة العظيمة؛ لما لها من أهمية في تعديل كيان المسلم واستقامته، من هنا حافظ الإسلام على قدسيتها، وبيّن مكانتها، فجاء القرآن الكريم وتحدث عنها من زوايا متعددة كلها تدل على عناية الإسلام بها، فمرة يتحدث عن أثرها في حياة المسلم، ودورها العظيم في تعديل سلوكه**(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)** العنكبوت:٤٥، ومرة يؤكد على أداء بعض الأوقات ويحث عليها**(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِين)** البقرة:٢٣٢، وغير ذلك، وتأتي السنة النبوية سالكة النهج نفسه الذي سلكه القرآن الكريم معتمدة في كثير من الأحيان على الترغيب والترهيب، فتارة يبين النبيﷺ خيْريَّة بعض الصلوات كركعتي الفجر وما فيهما من عظيم الأجر والثواب، وتارة يبين خيْريَّة بعض الصفوف في الصلاة، وتارة يتوعد من يمر بين يدي المصلي فيشغله ويضيع عليه خشوعه، مبينا أن وقوفه – وإن طال – خير من مروره بين يديه، وتارة يبين خيْريَّة التسبيح والتهليل والتحميد عقب الصلوات، وما فيه من أجر وثواب بسبب الصلاة، وتارة يبين خيْريَّة الصلاة في أماكن محددة، وزيادتها في الأجر كمسجدي مكة والمدينة، وغير ذلك، مما يدل على أهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام، وقد ورد بعض من ذلك في الصحيحين على النحو التالي:

الحديث الأول: خيْريةُ ركعتي الفجر

عنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم –، قَالَ: «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[١].

والحديث يبين فضل ركعتي سنة الفجر، وعظيم ثوابهما عند الله تعالى. ومقام الحديث ترغيب وتحبيب في المحافظة عليها ببيان مالها من عظيم الثواب والأجر.

ولأهمية ركعتي الفجر فقد أكد عليهما النبي ﷺ من ناحيتين: ناحية قوليّة من خلال هذا الحديث، وناحية عمليّة من خلال أنه ﷺ لم يكن يتركهما[٢]، مما يدل على بالغ أهميتها .

ومن البلاغة النبوية العالية في الحديث الاقتصار على الترغيب فقط دون الترهيب – على غير العادة في معظم أحاديث الخيْريَّة– ولعل ذلك؛ لأن الكلام عن سنة الفجر وهي ليست فريضة، وتارك السنة لا يعاقب على تركها؛ فاقتضى المقام الاقتصار على جانب الترغيب فقط.

وأسلوب الحديث أسلوب خبري موجز، حيث بني الحديث على جملة واحدة لا تصل إلى تمام معناها إلا بآخر حرف منها كما هو الشأن في معظم أحاديث الخيْريَّة؛ وكأن النبيﷺ أراد لهذه الأحاديث أن تحفظ وتشيع على الألسنة حتى يتمثَّلها الناس قولا وعملا، ذكر ابن جني أنه: " قيل لأبى عمرو بن العلاء: أكانت العرب تطيل ؟ فقال: نعم لتبلغ، قيل: أ فكانت توجز ؟ قال: نعم، ليُحفظ عنها"[٣]، وقد لفت ابن وهب إلى هذه الغاية أيضاً في حديثه عن

١- صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما، ح (٧٢٥)،١/٥٠١.

٢- روى الإمام البخاري ﷺ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ مِنْهُ تَعَاهُدًا عَلَى رَكْعَتَيِ الفَجْرِ» .صحيح البخاري- كتاب التهجد، باب تعاهد ركعتي الفجر ومن سماهما تطوعا، ح (١١٦٩)، ٢/٥٧، ت/ محمد زهير بن ناصر، نشر/ دار طوق النجاة،ط١، ١٤٢٢هـ .

٣ – الخصائص لابن جني، ١/٨٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،ط٤.

المواضع التي يحسن فيها الإيجاز، إذ جاء منها: " المواعظ والسنن والوصايا التي يُراد حفظها ونقلها، ولذلك لا ترى في الحديث عن رسول الله ﷺ والأئمة شيئاً يطول، وإنما يأتي على غاية الاقتصار والاختصار"[١]، ولكنها على الرغم من إيجازها إلا أنها قامت بأداء المعنى على خير وجه، ويتضح ذلك مما يأتي:

لما كان مقصد الحديث الترغيب جاءت مفردات الحديث وتراكيبه متسقة مع الغرض منه، فيبدأ الحديث بقولهﷺ: **(رَكْعَتَا الْفَجْرِ)**، والمراد بهما السنة لا الفريضة، والتعبير به دون صلاة الفجر أوسنة الفجر زيادة في الحث والترغيب؛ فاللفظ المعبّر به (ركعتا الفجر) يدل على بساطة فعلهما وعظيم شأنهما، أي أنه على الرغم من أنهما ركعتان يسيرتان إلا أنهما خير من الدنيا وما فيها، وكأني بالبيان النبوي هنا يترسم خطا البيان القرآني حين قال ﷻ مرغِّبا في الصيام وحاثّا عليه بعد الأمر به ﴿ **أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ البقرة: ١٨٤.

وفي قوله: (رَكْعَتَا الْفَجْرِ) مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث أطلق الجزء(الركوع) وأراد الكل الصلاة المشتملة عليه؛ لبيان أهمية الركوع ومنزلته من الصلاة، وهو مجاز يقترب من الحقيقة لكثرة إطلاق الركوع على الصلاة حتى صار يستعمله العامة فضلا عن المتخصصين في كل المجالات، وقد أطلق القرآن الكريم الركوع في كثير من المواضع مرادا به الصلاة كما في قوله تعالى:﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ الحج: ٧٧، وقوله سبحانه: ﴿ **وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ** ﴾ البقرة:٤٣.

وإطلاق الركوع على الصلاة واشتهارها به لا يعني أنه أشرف أركانها على الإطلاق، فلو كان الأمر كذلك لكان السجود أولى؛ لأن العبد فيه يكون

١ – البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ت/ د/ حفني محمد شرف،١/١٥٤، نشر/ مكتبة الشباب، القاهرة، مطبعة الرسالة، ط١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م..

أقرب من ربه، فهو إطلاق لبيان أهمية الركوع ومنزلته من الصلاة. كما أن فيه إيجازا بحذف المضاف إليه والتقدير: ركعتا سنة الفجر.

وقوله: **(خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)** يُقصد به ثواب ركعتي الفجر خير من الدنيا وما فيها، فخير أفعل تفضيل، (وهي تقتضي المشاركة في الأصل والزيادة كما تقرر، ولا مشاركة هنا بين فضيلة ركعتي الفجر ومتاع الدنيا المخبر عنه لأنه ملعون....والمعنى: إن ما يحصل من ثواب نعيم ركعتي الفجر في الدار الآخرة خير من جميع ما يتنعم به في الدنيا، فترجع المفاضلة إلى ذات النعيم الحاصل في الدارين، لا إلى نفس ركعتي الفجر ومتاع الدنيا)[١]، وعليه يكون في قوله **(رَكْعَتَا الْفَجْرِ)** إيجاز بحذف المضاف أيضا، والتقدير: ثواب ركعتي الفجر خير من الدنيا وما فيها .

وإنما كانتا خيرا من الدنيا (لأن الدنيا فانية ونعيمها لا يخلو عن كدر النصب والتعب وثوابهما باق غير كدر)[٢]. والباقي خير من الفاني الزائل.

ولسائل أن يسأل: كيف يكون الغرض من الحديث الترغيب في أداء سنة الفجر وبيان فضلها، وتأتي الخيْريَّة على الدنيا وهي بهذه المنزلة الوضيعة؟ ويمكن أن يجاب عن ذلك من ناحيتين:

الأولى: أن الدنيا ومتاعها هي أكثر ما يتعلق الناس به، وهي التي تشغلهم عن أدائها؛ فبين لهم النبي ﷺ أن ركعتي الفجر خير من كل ما يتعلقون به.

الثانية: أنه لا يفهم من تفضيل ركعتي الفجر على الدنيا ذم الدنيا فقد روي (أن رجلا ذم الدنيا بمحضر علي ﷺ فقال: مالك ولذمها، وهي دار غنى

١ – رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام لتاج الدين الفاكهاني، ٦٥٨/١، ت/ نور الدين طالب، نشر/ دار النوادر، سوريا، ط١، ١٤٢هـ، ٢٠١٠م.وقد استدل الشافعي في أحد قوليه بهذا الحديث على أفضلية ركعتي الفجر عن الوتر، ووجهه أنه جعل ركعتي الفجر خيرا من الدنيا وما فيها، وجعل الوتر خيرا من حمر النعم، وحمر النعم جزء ما في الدنيا. ينظر: نيل الأوطار للشوكاني، ٢٥/٣، ت/ عصام الدين الصبابطي، نشر/ دار الحديث، مصر، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٢ – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري، ٣٨٨/٢، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت.

لمن تزود منها، ودار عظة لمن فهم عنها، ذكرت بسرورها السرور وببلائها البلاء، مهبط وحي الله، ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها بالحسنات)[١].

والتعبير بالدنيا وما فيها من إجمال يدل على العموم؛ فلم يفصّل ما في الدنيا من نعيم حتى لا تنحصر الخيْريَّة في هذه الأمور المذكورة، وإنما هي خيْريَّة عامة تشمل كل ما في الدنيا، وهذا أنسب لمقام الترغيب في المحافظة على صلاة الفجر.

وبمعاودة التأمل في الحديث نلحظ أنه قد بني على الإيجاز فجاء محكم السبك، قوي الأسلوب، وقد بدا ذلك في عدة مظاهر تمثلت فيما يأتي:

١- بناء الحديث على الأسلوب الخبري حيث جاء جملة واحدة مكونة من مبتدأ وخبر لتقرير خيْريَّة ركعتي الفجر.

٢- الإيجاز بحذف المضاف (ثواب) وأيضا الإيجاز بحذف المضاف إليه (سنة) في قوله(رَكْعَتَا الْفَجْرِ).

٣- المجاز المرسل في إطلاق الركوع على صلاة الفجر، لبيان أهمية الركوع من الصلاة.

٤- الإجمال في ذكر الدنيا وما فيها، دون تفصيل ما فيها من أنواع النعيم المختلفة لمناسبة مقام الترغيب.

٥- الاقتصار على جانب الترغيب فقط دون الترهيب؛ لمناسبة مقام الحديث وهو الترغيب والتحبيب [٢].

بقي أن أشير إلى علاقة ما جاء في هذا الحديث وماجا ء في القرآن الكريم، حيث تحدث القرآن الكريم عن فريضة الفجر(الصبح) وسلط الضوء على ركن من أركانها(القراءة) وبين ما فيه من الخير والبركة بحضور

١- الكوكب الوهاج والروض البهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ٣٣٥/٩.

٢- استدل العلماء باقتصار الحديث على جانب الترغيب فقط على عدم وجوب ركعتي الفجر. ينظر: سبل السلام للصنعاني، ٣٣٥/١، نشر/ دار الحديث.

الملائكة وشهودهم له في قوله تعالى ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ (الإسراء: ٧٨)، ذكر الزمخشري أن المقصود بقرآن الفجر: "صلاة الفجر، سميت قرآنا وهو القراءة، لأنها ركن، كما سميت ركوعا وسجودا"[١]، وجاء في هذا الحديث ذكر سنة الفجر والتركيز على ركن آخر من أركانها وهو(الركوع) وإطلاقه على الصلاة، وبهذا يكون القرآن الكريم قد تحدث عن الفريضة وذكر فيها جزئية معينة(القراءة) وسلط عليها الضوء، وتحدثت السنة عن سنة الفجر وركزت على ركن آخر(الركوع) وسلطت عليه الضوء، مما يبرز الترابط الوثيق بين القرآن الكريم والسنة المطهرة.

١ – الكشاف للزمخشري ٦٨٦/٢، نشر/ دار الكتاب العربي، بيروت،ط٣، ١٤٠٧هـ .

الحديث الثاني

خيْريَّة صفوف الرجال والنساء في الصلاة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»[١].

ومقام الحديث ترغيب ببيان فضل الصفوف الأولى في الصلاة، وحث على التبكير إليها بالنسبة للرجال، والتأخر عنها في جانب النساء.

وقد سلك البيان النبوي في تبيان أفضلية الصفوف الأولى طرقا عدة في أحاديث مختلفة منها هذا الحديث[٢].

وهذا الحديث يختلف عن سابقه؛ حيث اقتصر الحديث السابق في بيان أفضلية ركعتي الفجر على الترغيب، أما هنا فقد اشتمل الحديث على الترغيب والترهيب، وهما وسيلتان من الوسائل التي تدفع العبد نحو تنفيذ الأوامر، واجتناب النواهي بدوافع داخلية –وهي لاشك أقوي من الدوافع الخارجية – نابعة من الرغبة والرهبة ، كما أنهما " من الأساليب البلاغية التي تعمق الإحساس بالأشياء، وتزيد النفوس بصراً بالحقائق، وذلك لأنها تختص بالجمع بين الأشياء المتناقضة"[٣]، هذا فضلا عن إثارتهما للنفوس من خلال إبراز المحببات والمرغبات في جانب الترغيب، وفي المقابل إبراز العقاب في جانب الترهيب؛ فيأتيان على رأس الوسائل التي "تعطي الأسلوب قدرة على الإيقاظ،

---

١ – صحيح مسلم– كتاب الصلاة، باب: تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، ح (٤٤٠)، ٣٢٦/١.

٢ – ورد عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة تبين فضيلة الصف الأول في الصلاة منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ، لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا». صحيح مسلم– كتاب الصلاة، باب: تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، ح (٤٣٧)، ٣٢٥/١. وقد روي أن النبي ﷺ كان يستغفر للصف الأول ثلاثا وللثاني مرة. ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ١٢٥/٥، نشر/ دار إحياء التراث العربي، بيروت . وغيرها.

٣ – التحبير، د/ محمود توفيق سعد صـ١٤٨، مكتبة العمروسي، القاهرة.

ويصير الحس معها كأنه يكون مستنفراً مثارا حين يحس بما وراء هذه المتناقضات من صراعات وتجاذبات وهو يثب علي قممها المتناقضة"[١]، وهذا تأكيد للمعني المراد .

وجمع بين الترغيب والترهيب أسلوب المقابلة الذي بني عليه الحديث، فجاءت في جزئياته وكلياته، حيث وردت ثلاث مرات في الحديث:

الأول: قولهﷺ: **(خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا)**، جاءت المقابلة هنا بين (خير و شر)،و (أول و آخر) لتأكيد خيْريَّة صفوف الرجال الأولى، وزيادتها في الثواب والأجر على الصفوف المتأخرة.

الثانية: وهي على مرمى حجر من المقابلة السابقة حيث قولهﷺ: **(وخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا)** مقابلة أيضا بين (خير و شر)، (آخر و أول) على عكس المقابلة الأولى لتأكيد خيْريَّة صفوف النساء الأخيرة وزيادتها في الأجر والثواب على الصفوف الأولى.

الثالثة: مقابلة عامة بين شطري الحديث **(خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا) و(خَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا)**، وهي مقابلة شملت المقابلتين السابقتين وأكدتهما. وهكذا استغرقت المقابلة الحديث كله فشملت معظم مفرداته لتأكيد المعنى الذى يرمي إليه الحديث، وهو الحث على المبادرة إلى الصفوف الأولى بالنسبة للرجال، والتأخر إلى الصفوف الأخيرة في جانب النساء، فالمقابلة – كما يقول الأستاذ الشايب –: (نوع من التحدي بين المعاني، والمنافسة في الظهور، وهذه قوة للمعاني)[٢].

ومن البلاغة النبوية العالية هنا تقديم الترغيب على الترهيب لمناسبته مقام الترغيب في الصفوف الأولى للرجال وتأخيرها للنساء.

والمراد بالخيْريَّة في قولهﷺ **(خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا)** كثرة الثواب والأجر لهم وذلك لأن (الصف الأول أعلم بحال الإمام فيكون متابعته أكثر وثوابه أتم وأوفر، ومرتبة النساء لما كانت متأخرة عن مرتبة الرجال كان آخر

١ – قراءة في الأدب القديم، د/ محمد أبو موسى، صـ٢٨٨، مكتبة وهبة.
٢ – الأسلوب أ/ أحمد الشايب صـ١٩٧، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م.

الصفوف أليق بمرتبتهن)[١]، وأيضا (لأن أصحاب الصف الأول هم المبادرون المُسارعون، ولهم فضيلة السبق والقرب من الإمام، وليس بينهم وبيْن القبلة أحد)[٢].

واختيار لفظ (الرجال) دون المصلين مثلا متناسب مع مقام الترغيب هنا، إذ إن من يكون في مقدمة الصفوف يستحق أن يوصف بوصفين (الخيْريَّة والرجولة) وفي هذا زيادة حث على التبكير للصلاة لينال المبكّر شرف الاتصاف بهذين الوصفين اللذين يتطلع إليهما كل أحد، كما أن التعبير بالرجولة هنا جاء على شاكلة التعبير القرآني حين تحدث عن عمار المساجد بالذكر والتسبيح فوصفهم بالرجولة أيضا حيث قال ﷻ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (النور:٣٦– ٣٨)؛ مما يبرز علاقة السنة النبوية المطهرة بالقرآن الكريم وأنهما من معين واحد.

وقولهﷺ: **(وَشَرُّهَا آخِرُهَا)** أي: أقلها أجرا، فهو بالإضافة إلى الصف الأول ناقص في الأجر.

والحقيقة أن الصلاة في الصفوف المتأخرة ليست شرا، فصفوف الصلاة كلها خير، وإنما عُبر عنها بالشر للتنفير، فحسبها أن يطلق عليها اسم الشر مع ما فيها من الخير، وهذا مناسب لمقام الترهيب والتخويف، وقد يكون سماه شرا (لمخالفة أمره فيها – عليه السلام – وتحذيرًا من فعل المنافقين بتأخرهم عنه وعن سماع ما يأتي به)[٣]، كما أن فيه إشارة إلى (أن تأخر الرجل عن

١ – الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم ٢٤٩/٧.
٢– شرح سنن أبي داود للعيني: ٢٣١/٣.
٣ – إكمال المعلم بفوائد مسلم للسبتي ٣٥١/٢، ت/ يحيى إسماعيل، نشر/ دار الوفاء–مصر، ط١، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م.

مقام القرب مع تمكنه منه هضم لحقه وتسفيه لرأيه فلا يبعد أن يسمى شرا قال المتنبي:

ولم أر في عيوب الناس شيئا. . . كنقص القادرين على التمام)[١].

ويمكن أن يكون تسميته شرا من قبيل المجاز المرسل لعلاقة المسببيّة، حيث إن التأخر عن الصفوف الأولى قد يجر إلى التخلف عن الصلاة، وهذا شر محض، وهذا أيضا مما يتناسب مع مقام الترهيب، يقول ابن علان: (التأخر عن الكمال مع القدرة عليه فيه غاية الهضم للقدر والتسفيه للرأي والتقنع بسفساف الأمور وعدم التطلع إلى معاليها، فلا يبعد في تسميته شراً لذلك، ولأنه يجر إليه كما يعلم مما يأتي في شرح قوله «ولا يزال قوم يتأخرون»)[٢].

وقوله ﷺ : **(وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا)** أي: أكثرها ثوابا، وهو انتقال لبيان خيْريَّة صفوف النساء بعد بيان خيْريَّة صفوف الرجال، وأنهن على العكس من الرجال، فأفضل صفوفهن آخرها، وهذا ترغيب في التزام الصفوف الأخيرة بالنسبة لهن، والعلة في خيْريَّة الصفوف الأخيرة بالنسبة لهن (لِبُعْدِهِنَّ مِنْ مُخَالَطَةِ الرِّجَالِ وَرُؤْيَتِهِمْ، وَتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهِمْ عِنْدَ رُؤْيَةِ حَرَكَاتِهِمْ وَسَمَاعِ كَلَامِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَذَمَّ أَوَّلَ صُفُوفِهِنَّ لِعَكْسِ ذَلِك)[٣]، وهذا الحكم بالنسبة لهن إذا اختلطن بالرجال، أما إذا انفردن عنهم فينطبق عليهن ما ينطبق عليهم، يقول الإمام النووي –رحمه الله –: (أَمَّا صُفُوفُ الرِّجَالِ فَهِيَ عَلَى عُمُومِهَا فَخَيْرُهَا أَوَّلُهَا أَبَدًا وَشَرُّهَا آخِرُهَا أَبَدًا، أَمَّا صُفُوفُ النِّسَاءِ فَالْمُرَادُ بالحديث، أما صُفُوفُ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي يُصَلِّينَ مَعَ الرِّجَالِ، وَأَمَّا إِذَا صَلَّيْنَ مُتَمَيِّزَاتٍ لَا مَعَ الرِّجَالِ فَهُنَّ كَالرِّجَالِ خَيْرُ صُفُوفِهِنَّ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا)[٤].

---

١ – فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٤٨٧/٣، نشر/ المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

٢ – دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان ٦/ ٥٦٧، نشر/ دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م.

٣– شرح النووي على مسلم ١٥٩/٤، ١٦٠، نشر/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ .

٤ – السابق ١٥٩/٤.

وقوله ﷺ: **(وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا)** أي: أقلها ثوابا، ووصفت بالشر للتنفير والترهيب أيضا.

وقد فهم بعض شراح الحديث من وصف أول صفوفهن بالشر معنى دقيقا، وهو التعريض والتلميح لهن بعدم حضور الجماعات، وذكر أن هذا (تَلميح للنساء أنْ لا يَحْضُرْنَ الجماعاتِ من عرض الكلام، لا بصريح القول، فإن الحضور إلى الجماعاتِ خير لا ينبغي لصاحب النبوةِ أن ينهى عنه في زمانه، ولكنه يُفْهم من أطراف الكلام أن رضاءه في عدم الحضور، وهو الشاكلةُ في سماعه غناءَ الجاريتين، فإنَّه لم يكن يستمع لغنائهما وكان متغشِّيًا بالثوب، ومع ذلك لم يَنْه عنه أيضًا)[١]، ويعضد هذا القول الحديث (**عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم –، قَالَ: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا»**[٢].

وبعد: فالحديث على الرغم من إيجازه إلا أنه غني بالألوان البلاغية سواء كان ذلك على مستوى المفردات أو على مستوى الجمل، وكانت كلها متناسبة أشد التناسب مع الترغيب والترهيب الذي اشتمل عليهما الحديث، وكان أسلوب المقابلة هو الأسلوب الأعلى المسيطر على الحديث كله، وكان الإيجاز هو السمة الغالبة على الحديث ، وتوافقت السنة النبوية مع القرآن الكريم في استعمال وصف الرجولة مع عمار المساجد؛ فكان الحديث غاية في البلاغة والفصاحة.

*****

١ – فيض الباري على صحيح البخاري للكشميري، ت/ محمد بدر عالم الميرتهي،٤١٢/٢، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢ – سنن أبي داود ١٥٦/١، ح(٥٧٠)، ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر/ المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. وصححه الإمام الألباني .

الحديث الثالث

خيْريَّة عدم المرور بين يدي المصلي

للصلاة قدسيتها ومكانتها العظيمة في الإسلام؛ لذلك حرص الشارع الحكيم على توفير أكبر قدر من الخشوع والتفرغ للصلاة وعدم الانشغال عنها بأي شاغل، وامتدح سبحانه وتعالى الخاشعين في الصلاة فقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون: ١ – ٢]، وجاءت السنة النبوية متوعدة من يخلّ بهذا الخشوع أو يحاول العبث بقدسية هذه الفريضة العظيمة بأن يشغل المصلي بالمرور أمامه مضيعا عليه الخشوع والخضوع بين يدي مولاه، وقد جاء ذلك من خلال الحديث الآتي:

(عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ خَالِدٍ، أَرْسَلَهُ إِلَى أَبِي جُهَيْمٍ يَسْأَلُهُ: مَاذَا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – فِي المَارِّ بَيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي؟ فَقَالَ أَبُو جُهَيْمٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –: «لَوْ يَعْلَمُ المَارُّ بَيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ، لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ» قَالَ أَبُو النَّضْرِ: لاَ أَدْرِي، أَقَالَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ شَهْرًا، أَوْ سَنَةً)[1].

ومقام الحديث وعيد شديد وترهيب قوي لمن يمر بين يدي المصلي.

والغرض من الحديث المحافظة على قدسية الصلاة، والعمل على توفير أكبر قدر من الخشوع للمصلين، وتهيئة الجو المناسب حتى لا يتعكر صفو هذا الخشوع.

وقد اتسم نظم التراكيب في الحديث بخصائص وفّت بالغرض منه، وتجلَّى ذلك فيما يلي:

---

١ – صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: إثم المار بين يدي المصلي، ح(٥١٠)، ١٠٨/١، وأيضا صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب: منع المار بين يدي المصلي، ح(٥٠٧)، ٣٦٣/١.

لعل أول ما يلفت النظر في الحديث هو بناؤه على الإبهام المناسب لمقام الوعيد والتهديد لمن يمر بين يدي المصلى، وقد ورد هذا الإبهام في موضعين:

الأول: إبهام العقاب الذي ينتظر المار بين يدي المصلي، وذلك في قوله ﷺ **(لَوْ يَعْلَمُ المَارُّ بَيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ)** حيث أبهم الجزاء ولم يبينه، ولم يحصره في نوع معين؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب، أي أنه إثم عظيم لا يمكن وصفه، وهذا للمبالغة في الوعيد والتهديد، يقول صاحب منار القاري: (وإنما أبهم النبي – صلى الله عليه وسلم – هذه العقوبة في قوله: "ماذا عليه " للدلالة على أن عقوبة المرور أمام المصلّي عقوبة عظيمة لا يمكن أن يتصورها العقل البشري ولا يعلم مداها إلاّ الله سبحانه)[١]، وكل ذلك يدل على عظم الذنب الذي يرتكبه هذا المخالف.

الثاني: إبهام المعدود في قوله: **(لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ)**، فلم يحدد أهي يوم أم شهر أم سنة أم ماذا؟ تفخيما للأمر وتعظيما له، وهو إبهام متناسب مع إبهام العقاب قبله، ويتآزر معه في المبالغة في الوعيد؛ مما يبرز قدسية الصلاة ومكانتها العظيمة عند الله تعالى.

وقولهﷺ:**(لَوْ يَعْلَمُ المَارُّ بَيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي)** معناه:(لو علم المار مقدار الإثم الذي يلحقه من مروره بين يدي المصلي لاختار أن يقف المدة المذكورة حتى لا يلحقه ذلك الإثم)[٢]، ففيه استعمال المضارع (يعلم) مكان

١– منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم، ٥٧/٢، تصحيح/ بشير محمد عيون، نشر/ مكتبة دار البيان، دمشق، سوريا، ومكتبة المؤيد، الطائف، السعودية، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م. جدير بالذكر أن هناك رواية وحيدة للحديث ذكرت نوع العقوبة هي رواية الكشميهنيّ حيث ذكر في روايته للحديث (ماذا عليه من الإثم) ولكن هذه الرواية حكم عليها شراح الحديث بالشذوذ، وقالوا إن كل روايات الحديث لم تذكر نوع العقوبة التي تنتظر المار، وعللوها باحتمالية أن تكون قد ذكرت في حاشية الحديث لكن ظنها الكشميهنيّ أصلا لأنه لم يكن من أهل العلم ولا الحفاظ. ينظر: كشف اللثام شرح عمدة الأحكام: ٤٨٨/٢، وكوثر المعاني الدراري: ٤٠٢/٧.

٢ – عون المعبود:٢٧٨/٢.

الماضي(علم)؛ لما أن الفعل المضارع يفيد التجدد واستحضار الصورة، أي أنه على المسلم أن يتذكر دائما هذا الذنب العظيم الذي يلحق من يمر بين يدي المصلي ولا ينساه في وقت من الأوقات، وهذا أيضا تأكيد للترهيب من المرور بين يديه، ومثله تماما التعبير بالمضارع (يقف) في قولهﷺ:" **لَكَانَ أَنْ يَقِفَ**" لينقل لنا صورة هذا الواقف المنتظر هذه المدة الطويلة حتى لا يمر بين يدي المصلي لعلمه بعظم ذنبها، وهذا المشهد لم يكن ليصوَّر لنا لو عبر بالماضي (وقف)؛ مما يبرز دقة البيان النبوي في اختيار الصيغ المعبرة والأوفى بالدلالة على المعنى المراد.

وقولهﷺ : **(بَيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي)** كناية عن القرب منه، والكناية هنا أبرزت التشويش الذي يحدثه هذا المار بين يدي المصلي، وانشغاله به كمن ينشغل بشيء يكون بين يديه يعمله، مما يبرز انشغاله عن الصلاة والذهاب بخشوعها، والمقصود" المرور المعترض بين يدي المصلي، أما إذا مشى بين يديه ذاهبا لجهة القبلة فليس داخلا في الوعيد"[١]، واختصاص اليدين بالذكر؛ لما لهما من خصوصية في هذا الموضع إذ(بهما غالبا دفع المار المأمور به)[٢].

١ – تحفة الأحوذي:٢/٢٥٥. واختلف في المسافة التي يكون عليها الوعيد وفي قدر القرب الذي يمنع المرور على وجهين أحدهما: أنه محدود بثلاثة أذرع؛ لأنها منتهى المسنون في وضع السترة، على ما سبق. والثاني: حده بما لو مشى إليه لدفع المار أو غيره، لم تبطل صلاته. وجاء في حديث مرفوع من حديث ابن عباس: تقديره بقدر قذفة بحجر= = ينظر: فتح الباري:٤/٩٦. ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح:٢/٤٩٠. كما أن هذا التغليظ – كما ذكر ابن القيم– مخصوص بالمار بين يدي المصلي الذى يصلي إلى سترة دون الذي يصلي إلى غير سترة يستتر بها. ينظر: حاشية ابن القيم، تهذيب السنن مع عون المعبود:٢/٢٧٨. وذكر ابن رجب أن الحديث: دليل على تحريم المرور بين يدي المصلي، سواء كان يصلي إلى سترة أو لم يكن، فإن كان يصلي إلى سترة حرم المرور بينه وبينها، إذا لم يتباعد عنها كثيرا. وإن لم يكن بينه وبين القبلة سترة، أو كانت سترة وتباعد عنها تباعدا فاحشا، ففي تحريم المرور وجهان لأصحابنا: أصحهما: التحريم؛ لعموم حديث أبي جهيم. والثاني: يكره ولا يحرم، وهو قول أصحاب الشافعي. ينظر: فتح الباري لابن رجب الحنبلي:٤/٩٦.

٢ – فيض القدير:٥/٣٣٤.

والتعبير بجهة العلو في قوله(مَاذَا عَلَيْهِ) مشعر بتمكن الذنب من هذا الذي يقدم على المرور بين يدي المصلي، وهو مما يبالغ في التهديد والتخويف، ويتناغى مع إبهام الذنب الذي جاء عليه التعبير.

ومن براعة النظم في الحديث ما نراه من التعبير بلفظ الأربعين في قولهﷺ:(**لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ**) ولا يقصد به العدد المعروف المخصوص، وإنما للمبالغة في تعظيم الأمر وتفخيمه تماهيا مع مقام الوعيد والتهديد.

ولسائل أن يسأل: إذا كان الأمر كذلك فلِم لم يعبر بعدد آخر مما هو أكثر من الأربعين؟ ولعل الإجابة فيما ذكره ابن حجر نقلا عن الكرماني أن(لتخصيص الأربعين بالذكر حكمتين، إحداهما: كون الأربعة أصل جميع الأعداد، فلما أريد التكثير ضربت في عشرة. ثانيتهما: كون كمال أطوار الإنسان بأربعين كالنطفة والعلقة والمضغة وكذا بلوغ الأشد، ويحتمل غير ذلك)[١]. وإن كان هناك حديث عن أبي هريرة–رضي الله عنه–: (لكان أن يقف مائة عام) وهو مخالف لحديث الصحيحين الذي معنا[٢].

وما أبلغ ختم الحديث بقولهﷺ: **(مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ)** لما فيه من رد للعجز على الصدر لإفادة التأكيد والمبالغة، مما جعل الحديث كله من أوله إلى نهايته يتسلط على جانب واحد لا يحيد عنه، مكررا إياه في البدء والختام، مما يجعل الحديث كأنه كلمة واحدة تُصوَّب نحو هدف واحد وتركز عليه، وهو التخويف والتهديد البالغ لمن يمر بين يدي المصلي.

وبإجالة النظر في الحديث يلحظ أنه عُبِّر بالمصدر المؤول في موضعين:(لكان أن يقف)، (من أن يمر بين يديه)؛ بدلا من أن يقال: لكان وقوفه خيرا من مروره بين يديه ولعل ذلك؛ لأن المصدر المؤول بطبيعة تكوينه

١ – فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر:١/٥٨٥، نشر/ دار المعرفة، بيروت، طبعة١٣٧٩هـ.
٢ – ينظر: صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان لناصر الدين الألباني:١/٨٧، نشر/ دار الصميعي، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م. وهذا الحديث ذكره الألباني وضعّفه.

يتيح للمتكلم إضافة عدة دلالات زيادة على مفهوم المصدر الصريح، ولعلها هنا دلالة الاستمرارية التي استفيدت من استعمال المضارع.

وهكذا امتزج نسيج الحديث من ألفاظ وتراكيب مع مقام الوعيد لأداء المعنى على خير وجه، وكان الإبهام هو الأسلوب الأبرز في الحديث؛ لمناسبته مقام التهديد والوعيد، وتآزر مع الإبهام بعض الألوان الأخرى كالتعبير بالمصدر المؤول ورد العجز على الصدر وغيرها ، وكانت غاية في الفصاحة والبلاغة.

ومن السهولة الربط بين هذا الحديث وبين ما جاء في القرآن الكريم مما يتقارب معه في المعنى، ففي القرآن الكريم امتدح الله تعالى الخاشعين في الصلاة وحكم لهم بالفلاح ، وجعلهم أول الأصناف المحكوم لهم به في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون: ١ – ٢] وهذا الخشوع قد تفسده أمور كثيرة منها المرور بين يدي المصلي، فجاءت السنة النبوية في هذا الحديث لتبين بعض الطرق المؤدية إلى المحافظة على الخشوع في الصلاة بهذا الوعيد الشديد لمن يمر بين يدي المصلي فيفسد عليه خشوعه؛ مما يبرز قدسية الصلاة ومكانتها بتوفير أكبر قدر من الخشوع والتفرغ لها، وعدم الانشغال عنها بأي شاغل.

*****

الحديث الرابع:

خيْريَّة التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلاة

النبي الكريمﷺ ما ترك خيرا إلا وجه إليه، وحض على فعله، من ذلك إعلام أمته بأفضل الأوقات للذكر وإجابة الدعاء، وذلك عقب الصلوات؛ لأن الصلاة تقرب العبد من ربه تعالى، وكلما تقرب العبد كلما كان جديرا بأن يجاب دعاؤه، وقد جاء التوجيه لذلك من خلال هذا الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ الفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم –، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ العُلاَ، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، قَالَ: «أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ؛ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ»، فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا، فَقَالَ بَعْضُنَا: نُسَبِّحُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَنَحْمَدُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: تَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ»[1].

ومقام الحديث يحكي قصة حدثت للفقراء مع رسول اللهﷺحين آلمهم ما يجدونه من تقصير عن الأغنياء في الأجر والثواب، مما يبرز حرص الصحابة وتنافسهم في الخير وتحصيل الثواب.

والغرض من الحديث بيان فضل الذكر عقب الصلاة، وما له من أجر عظيم.

وسياق الحديث يبين مجيئهم للنبيﷺ وبث شكواهم إليه، وإرشاده لهم لبعض الأعمال التي يستطيعون بها اللحاق بركب الأغنياء، ويبدأ الحديث

---

١ – أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة، ح(٨٤٣)،١/١٦٨، ، والدثور: جمع دثر بفتح الدال وسكون الثاء، وهو المال الكثير. وأخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، ح(٥٩٥)، ١/٤١٦، ولم يذكره بلفظ الخيْريَّة وإنما قال: (وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ).

بقوله ﷺ للفقراء بعد أن عرضوا عليه شكواهم: **(ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ العُلاَ، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ)**، فيجيبهم النبيﷺبما يثلج صدورهم: **(أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ)**. وقد استهل النبيﷺ الحديث بهذا العرض**(أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ)**[١]؛ ليسترعي انتباههم، فضلا عما فيه من تسلية للفقراء وجبر خاطرهم، كما أن فيه حثا لهم على التزام الحل الذي سيعرضه عليهم وهو التسبيح والتحميد والتهليل عقب كل صلاة.

وهذا افتتاح بديع من افتتاحات النبيﷺحيث لم يردّ عليهم بقوله مثلا: نعم هم أفضل منكم، وإنما أرشدهم إلى الحل الذي يجعلهم يلحقون بهم مباشرة، وهذا شأن الداعية المصلح المعلِّم أن يوجه بما يدعو إلى التنافس في الخير، ويبعد عن الخلاف والشقاق، وعما ينشر الكراهية بين الطبقات المختلفة.

وعرض الحل في سياق الشرط وجوابه تأكيد له، حيث يتحقق الجزاء فور تحقق الشرط وهذا حث قوي على فضل الذكر عقب الصلوات.

واصطفاء التعبير بصيغة التحدث (أحدّثكم) دون أعلمكم مثلا أو أعرفكم للإشعار بقربهم منه وسماعه لهم ولشكواهم والحديث معهم مباشرة دون واسطة، بخلاف الإعلام أو المعرفة التي ربما تكون بواسطة أو بغير واسطة.

واستعمال الماضي في الشرط والجزاء(أخذتم، أدركتم) موضع المضارع تأخذوا وتدركوا إشارة إلي تحقق المساواة بينهم وبين الأغنياء إن هم فعلوا ما يأمرهم بهﷺ من التسبيح والتهليل والتحميد عقب كل صلاة، وفي هذا تطييب لخاطر الفقراء.

١ – رواية البخاري هذه سقطت فيها ما مع الباء في قوله أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ والتقدير: بما إن أخذتم به أدركتم.

والتعبير بالإدراك دون المساواة؛ لأنه أعم فقد يدرك ثم يفوق[١]، فالتعبير به يتناسب مع حالة الفقراء وجبر خاطرهم، أي أنهم إن التزموا بالتسبيح والتهليل والتكبير عقب الصلوات تفوقوا على الأغنياء في الأجر والثواب .

وجملة:(**وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ**) مقابلة بديعة بينها وبين الجملة السابقة عليها (**أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ**) تبرز عظم أجر التسبيح والتحميد والتهليل بعد الصلاة، وأنه لا يكون سببا فقط في إدراك من سبقهم، وإنما أيضا يكون سببا في ألا يلحقهم من يأتي بعدهم، مما يظهر فضيلة هذه الأشياء عقب الصلوات، ويؤكد الحث على الالتزام بها.

وامتدادا لحبل المبالغة في عظم أجر الفقراء– إن هم التزموا بما يوجههم إليه– يتعدد الجزاء دون الشرط، حيث لم يكتف النبيﷺ بأفضليتهم على السابقين واللاحقين فقط، فجاء قوله:(**وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ**) ومعناه: صرتم أفضل أهل زمانكم؛ ليستوعب الأزمنة كلها، ويجمع لهم الخيْريَّة في الماضي والحاضر والمستقبل، لتأكيد عظم الأجر وأنه ليس شيئا واحدا، وإنما جزاءات متعددة لشرط واحد، وهذه مبالغة في جبر خواطر الفقراء الذين جاءوا يشتكون أفضلية أغنياء زمانهم فقط عليهم، فتأبي الحكمة النبوية إلا أن ترشدهم إلي ما يفضِّلهم على أهل زمانهم وكل الأزمنة؛ مما يبرز رحمتهﷺ بالضعفاء ومهيضي الجناح.

والاستثناء(**إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ**) تقييد للخيْريَّة، أي أنها ليست خيْريَّة مطلقة وإنما خيْريَّة على من لم يفعل ما تفعلون، وتبدو روعة الاستثناء هنا في تركه الباب مفتوحا أمام الجميع– الأغنياء والفقراء– للتنافس في التسبيح والتحميد والتكبير لتحصيل هذه المنزلة العظيمة، وهذه هي الدعوة الحقة، يترك الداعية الباب مفتوحا أمام المدعوين للتنافس والتسابق ولا يقطع بالخيْريَّة المطلقة لطائفة معينة.

١– ينظر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: ٩١/١، وكشف اللثام شرح عمدة الأحكام ٩١/٣.

وبعد هذا العرض الوافي والحث البالغ المشوق يأتي المأمور به **(تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ)**[١] وهو أمر جاء في صورة الخبر، ومعناه: سبحوا واحمدوا وكبروا؛ لتأكيد الحث على الالتزام بالأمر ووجوب المسارعة إليه. يقول الإمام الزمخشري:(إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقّى بالمسارعة إلى امتثاله)[٢]، والإتيان به مضارعا**(تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ)** للدلالة على تجدد هذه الأذكار واستحضارها عقيب كل صلاة، وحُذف متعلق هذه الأفعال إيجازا للعلم به.

ومن البلاغة النبوية العالية ما نجده من ترتيب دقيق بين المأمورات التسبيح والتحميد والتكبير، وعلله ابن حجر قائلا:(يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ الْأَوْلَى الْبَدَاءَةُ بِالتَّسْبِيحِ لِأَنَّهُ يتَضَمَّن نفى النقائص عَنِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثُمَّ التَّحْمِيدُ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْكَمَالِ لَهُ؛ إِذْ لَا يَلْزَمُ من نفى النقائص إِثْبَاتُ الْكَمَالِ؛ ثُمَّ التَّكْبِيرُ إِذْ لَا يَلْزَمُ من نفى النقائص وَإِثْبَات الْكَمَال أَن يكون هُنَاكَ كَبِيرٌ آخَرُ ثُمَّ يَخْتِمُ بِالتَّهْلِيلِ الدَّالِّ عَلَى انْفِرَادِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِجَمِيعِ ذَلِك)[٣] ، وعلى هذا يكون تقديم التسبيح من قبيل التخلية قبل التحلية.

وقوله:**(خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ)** صريح في أن هذه الأذكار تكون بعد الفراغ من الصلاة، ويبدو لي – والله أعلم– أن تعليق هذه الأذكار بالصلاة لما أن الذكر هو الشيء الوحيد الذي أمر المولى– سبحانه – بالإكثار منه صراحة في كتابه الكريم فقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٤١ – ٤٢ ، والصلاة هي أكثر ما يتردد ويتكرر على مدار اليوم، فإذا ذكر المصلي ربه وسبّحه بعد كل صلاة فإنه بذلك يكون قد

١– اختلف في عدد التسبيح والتحميد والتكبير على أقوال كثيرة ، وعللها الشراح تعليلات مختلفة. ينظر: عمدة القاري١٢٧/٦.
٢– الكشاف للزمخشري ٢٧٠/١.
٣ – فتح الباري لابن حجر ٣٢٨/٢.

ذكر ربه خمس مرات على الأقل في اليوم والليلة، وهو ما يحقق الكثرة المطالب بها، هذا بالنسبة للصلاة فقط وينضم إليها باقي الأذكار التي أرشد إليها النبيﷺ في بقية الأوقات، وهذا ما يجلي حقيقة الربط بين البيان القرآني والبيان النبوي في هذا الحديث وكل الأحاديث الداعية إلى الذكر، حيث أمر القرآن الكريم بالذكر والإكثار منه عاما، وجاءت السنة النبوية وأمرت بالذكر في أوقات معينة وفي مواطن مختلفة، منها عقب الصلوات كما هنا، وكما في أذكار الصباح والمساء والنوم وغيرها مما يستغرق كل الأوقات.

كذلك يمكن الربط بين ما ورد في هذا الحديث وبين ما جاء في القرآن الكريم، بأن القرآن الكريم ذكر في بعض المواقف قوة رغبة فقراء الصحابة في تحصيل الأجر والثواب، وشدة حزنهم عندما يعجزون عن شيء يقدر غيرهم عليه، ويحصّلون به ثوابا أكثر منهم، وهم عاجزون عنه- وهو تنافس محمود حيث لا يحمل غلا ولا حقدا- كما حدث في غزوة تبوك حين لم يجد النبيﷺ ما يحملهم عليه فلم يستطيعوا الغزو معه؛ فحزنوا حزنا شديدا، وقد سجل القرآن الكريم ذلك حيث قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ التوبة: ٩٢، ويأتي البيان النبوي هنا ليضيف موقفا مشرقا آخر لهم مع رسول الله ﷺ عندما جاءوا يشتكون إليه عدم قدرتهم على تحصيل بعض جوانب الخير التي يحصل عليها الأغنياء، فيرشدهم النبيﷺ إلى السبيل الذي يستطيعون من خلاله اللحاق بركب الأغنياء، وكل هذا يظهر مدى حرصهم على تحصيل كل جوانب الخير، وحزنهم على فواته.

وفي نهاية الحديث يكون من حق السائل أن يسأل: كيف تتساوى هذه الكلمات(التسبيح والتكبير والتهليل) على سهولتها وخفتها مع الجهاد والصدقة وغيرها مما فيه مشقة، وتقف معها على قدم المساواة بل وتفضلها، ومعلوم أن الثواب يكون على قدر المشقة، ولعل الإجابة فيما ذكره العيني نقلا عن الكرماني أن:(أَدَاء هَذِه الْكَلِمَات حَقّهَا الْإِخْلَاص، سِيمَا الْحَمد فِي حَال الْفقر من أفضل الْأَعْمَال وأشقها، ثمَّ إِن الثَّوَاب لَيْسَ بِلَازِم أَن يكون على قدر

الْمَشَقَّة، أَلاَ ترى فِي التَّلَفُّظ بِكَلِمَة الشَّهَادَة من الثَّوَاب مَا لَيْسَ فِي كثير من الْعِبَادَات الشاقة؟)[١]، كما أن الفقراء (في هذه القصة، كانوا السبب في تعليم الأغنياء الذكر المذكور، فإذا استووا معهم في القول، فقد امتازوا بأجر السبب مضافًا إلى التمني، فلعل ذلك يقاوم التقرب بالمال، وتبقى المقايسة بين صبر الفقير على شَظَف العيش، وشكر الغني على التنعم بالمال، ومن ثم وقع التردد في تفضيل أحدهما على الآخر)[٢].

ولعل أهم ما يلفت النظر في الحديث عند تقليب النظر هو براعة التوجيه النبوي ومحاولة النبي ﷺ تحويل الطاقة السلبية عند الفقراء عندما جاءوا إلي ﷺ متمثلة في شدة حزنهم لعدم قدرتهم على تحصيل كامل الأجر، فيحولهاﷺإلى طاقة إيجابية، ويوجههم إلى ما يعوضهم عن النقص بإرشادهم إلى عمل في مقدورهم مبينا لهم ما فيه من كامل الأجر فترضى نفوسهم، ويندفعون نحو العمل بجد ونشاط، وهذا ما يجب أن يكون عليه الداعية.

وبعد، فالحديث كما سبق في بيان فضل الذكر عقب الصلوات وذكر الجزاء العظيم الذي يلقاه من يذكر ربه بعدها، وقد تضافرت في الحديث ألوان بلاغية كثيرة لأداء المعنى منها: أسلوب الشرط وما يحمله من تأكيد ، وورود الأمر في صورة الخبر، واصطفاء الكلمات الأكثر دلالة على المعنى المراد، وكانت كلها غاية في البلاغة والبيان.

*****

١ – عمدة القاري ٦/ ١٢٩.

٢ – كشف اللثام شرح عمدة الأحكام ٣/١٠٥.

الحديث الخامس:

فضل الصلاة في مسجدَيْ مكة والمدينة

اقتضت حكمة الله تعالى أن يفضِّل بعض الناس على بعض، ويفضِّل بعض الأعمال على بعض، ويفضِّل بعض الأزمنة على بعض، كما اقتضت حكمته تعالى أن يفضِّل بعض الأماكن على بعض، ففضَّل –سبحانه– مكة والمدينة على سائر البقاع؛ لشهودهما مخاض الدعوة الإسلامية، وكونهما مهبط الوحي، من هذا المنطلق كان مسجداهما ضمن المساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها، كما فُضلت الصلاة في مسجديهما على الصلاة في غيرهما من الأماكن، يوضح ذلك الحديث التالي:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ»[1].

وعند مسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ»[2].

ومقام الحديث بيان لخيْريَّة المسجد النبوي بالمدينة المنورة، والمسجد الحرام بمكة المكرمة على غيرهما من المساجد.

وقد وُسم هذا الحديث بالإيجاز معتمدا الأسلوب الخبري الذي هيمن على الحديث كله؛ لتناسبه مع مقام الإخبار بخيْريَّة هذين المسجدين.

وقد ارتكز الحديث على جملة واحدة تبدأ بقولهﷺ:(**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا**) والمقصود: ثواب صلاة، ففيه إيجاز بحذف المضاف اختصارا لأنه معلوم، وتنكير صلاة قيل: للوحدة، أي صلاة واحدة، وقيل: للعموم، أي: أي

---

١ – صحيح البخاري: كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ح(١١٩٠)، ٢/٦٠.

٢ – صحيح مسلم: كتاب الحج، باب: فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، ح(١٣٩٤)،٢/١٠١٢.

صلاة فرضا كانت أم نفلا، ورُدَّ بأن النكرة في سياق الإثبات لا تعمم، وأجيب بأن هذه قاعدة أغلبية، وأيضا أن العموم فيها مستفاد من المعنى والسياق[١]، وأرى أن الأولى أنها للوحدة لمساعدة السياق ذلك؛ حيث إن الحديث عن خيْريَّة الصلاة في مسجد النبيﷺ وأنها تفضل الصلاة في غيره بألف درجة في الثواب؛ وهذا يساعد على أولوية أن يكون التنكير للوحدة، وإذا نظرنا للمعنى فقط فيحتمل الوجهين لأن المعنى يتحملهما. وعلى هذا قد يستفاد العموم فيها من المعنى فقط.

والتعريف بإضافة المسجد إليهﷺ للتخصيص، أي: مسجدي هذا دون غيره من مساجد المدينة كقباء وغيره، وأكده بالإشارة(هذا)، وإن كان بعض العلماء قد استدل بالتعريف بالإشارة على أن تضعيف الصلاة في مسجد المدينة يختص بمسجده– عليه الصلاة والسلام – الذي كان في زمانه مسجدا دون ما أحدث فيه بعده من الزيادة في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم تغليبا لاسم الإشارة[٢]، والصحيح: أن الإشارة في الحديث إنما هي لإخراج غيره من المساجد المنسوبة إليه عليه السلام[٣]، فالزيادة داخلة في المضاعفة لأن الزيادة تأخذ حكم المزيد. ومعلوم أن المساجد تضاف لله – عز وجل– كما في قوله سبحانه ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ البقرة:١١٤، وقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ التوبة:

١ – ينظر: الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم ١٧٢/١٥.
٢ – ينظر: عمدة القاري ٢٥٦/٧.
٣ – ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٥٨٥/٢.

١٧ – ١٨، فـ (الْمَسَاجِدُ وَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ مِلْكًا وَتَشْرِيفًا فَإِنَّهَا قَدْ تُنْسَبُ إِلَى غَيْرِهِ تَعْرِيفًا، فَيُقَالُ: مَسْجِدُ فُلَانٍ)[١].

وقولهﷺ:(**خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ**)[٢] في الثواب والأجر لا أنها تجزئ عن الفوائت، وفيه إيجاز بحذف المضاف(ثواب) أيضا لأنه معلوم، واختلفت رواية مسلم عن رواية البخاري هذه حيث خصَّت الخيْريَّة بغيره من المساجد(**خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ**)، وأرى أن رواية البخاري أولى لما فيها من عموم يتناسب مع عموم الخيْريَّة، وهو المناسب لمقام الحديث.

والخيْريَّة هنا مقصورة على الثواب لا تتعداه إلى الإجزاء عن الفوائت، ويمكن أن يحمل التعبير بالألْف على الكناية عن الكثرة لا حقيقة العدد؛ ففضل الله تعالى وكرمه لا حدود له.

والاستثناء في قولهﷺ:(**إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ**) اختلف فيه العلماء، فقالوا: يحتمل ثلاثة أمور: لأنه إما أن يكون مساويا لمسجد رسول الله ﷺ في الثواب والأجر، وإما أن يكون أفضل منه، وإما أن يكون أقل منه، والجمهور على أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل؛ لأن الصلاة فيه خير من مائة ألف صلاة في غيره.[٣]

وبإعادة النظر في الحديث يلحظ أنه في بيان خيْريَّة المسجد النبوي على غيره من المساجد عدا المسجد الحرام، وقد جاءت ألفاظ الحديث وصوره

١ – الجامع لأحكام القرآن القرطبي :٢١/١٩،ت/ أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش، نشر/دار الكتب المصرية– القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م.

٢ – ذكر بعض العلماء أن المضاعفة لا تختص بالصلاة بل تعم سائر الطاعات، وبه صرح الحسن البصري، كما ذهب جماعة من العلماء أيضا إلى أن السيئات تضاعف بمكة كالحسنات منهم ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وأحمد بن حنبل وغيرهم لتعظيم البلد الحرام، وأخذ الجمهور بالعمومات. ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٥٨٨/٢.

٣ – ينظر: الجامع لأحكام القرآن القرطبي: ٣٧١/٦، وعمدة القاري:٢٥٦/٧، وشرح النووي على مسلم:١٦٣/٩.

متلائمة مع الغرض منه، وكان أبرز الصور تنكير صلاة في مفتتح الحديث للتناسب مع عموم الخيْريَّة، والتعريف بالإضافة إلى الضمير في قوله:(مسجدي)، وتعريفه بالإشارة لإفادة التخصيص، وإيراد الحديث في سياق الأسلوب الخبري، وكل هذا مما يتوافق ومقام الحديث.

بقي أن أشير إلى علاقة ما ورد في هذا الحديث وما ورد في القرآن الكريم، فقد جاء في القرآن الكريم الحديث عن المسجد الحرام بمكة، وبيان بعض فضائله في قوله تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ آل عمران: ٩٦ – ٩٧، وجاء في هذا الحديث بيان فضل المسجد النبوي على غيره من المساجد كما بيّن في حديث آخر بيان فضلهما مع المسجد الأقصى في قولهﷺ:(**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: " لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ – صلى الله عليه وسلم –، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**)[1]، فيكون القرآن الكريم قد تحدث عن أحد الحرمين(المسجد الحرام بمكة) وأبرز بعض فضائله، وتحدثت السنة النبوية عن الآخر(المسجد النبوي بالمدينة) وبينت بعض خصائصه؛ مما يبرز مكانة السنة المطهرة من القرآن الكريم.

*****

١ – صحيح البخاري: كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ح(١١٨٨)، ٢/٦٠.

المبحث الثاني

البلاغة النبوية في أحاديث خيْريَّة الإنفاق في سبيل الله

الإنفاق في سبيل الله تعالى من الأمور التي كثر الأمر بها في كتاب الله تعالى وسنة نبيهﷺ ؛ وذلك لما له من دور في استقرار الأمة، وإشاعة الرضا والطمأنينة بين طبقات المجتمع، وتنوعت أساليب الحث عليه، وبيان منزلته وخيْريَّته، وقد ورد في الصحيحين بعض من هذه الأحاديث التي تحث على الإنفاق وتبين خيْريَّته منها:

الحديث الأول:

خيْريَّة الإنفاق وعمل الخير

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –، قَالَ: " مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ "، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا، قَالَ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»[1]

ومقام الحديث حث ودعوة إلى الإكثار من عمل الخير في شتى الوجوه وعلى رأسها الإنفاق في سبيل الله، وترغيب في تتابع العمل الخيري ؛ ليصير عادة للمؤمن تجعله جديرا بالمناداة والتكريم يوم القيامة.

وغرض الحديث تحفيز المسلمين إلى المسارعة في أعمال البر المختلفة، وشحذ هممهم لذلك.

---

١ – صحيح البخاري: كتاب الصوم، باب: الريان للصائمين، ح(١٨٩٧)، ٣/٢٥. وأيضا: صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب: من جمع الصدقة، وأعمال البر، ح(١٠٢٧)، ٢/٧١١.

ولما كان غرض الحديث التحفيز والترغيب؛ فقد اعتمد عدة وسائل بلاغية لتمكين هذا الهدف في نفوس المتلقين، ودفعهم نحوه، ومن أبرز هذه الوسائل:

أولا: بناء الحديث على أسلوب الشرط وجوابه، حيث استغرق هذا الأسلوب معظم تراكيب الحديث، فقد ورد خمس مرات، وبين الشرط والجواب يحمل الحديث ألوانا بلاغية تساعد على استجلاء المعنى الذي اشتمل عليه الحديث، وبناء الحديث على الشرط وجوابه تحفيز على فعل المأمور به في الشرط للحصول على ما اشتمل عليه الجواب، هذا فضلا عما فيه من تأكيد لتحقق الجزاء فور تحقق الشرط وهو ما يبعث على امتثال الشرط، فقولهﷺ:" **مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ**" شرط وجوابه، وقد تباينت أقوال الشراح في المقصود بالزوجين، فذكر ابن حجر أن المقصود:" شيئين من شيء، ويطلق الزوج على الصنف والنوع وعلى كل مقترنين ونقيضين وشبيهين"[١]، وقيل:" المراد من الزوجين الاثنان من جنس واحد لا كما توهم ابن حجر"[٢]، وقيل:" المعنى في إنفاق الزَّوْجَيْن: الفرقُ بين العادة والعبادة، فإنه إذا أَنْفَقَ شيئًا مرَّةً، لم يَدُلَّ على أنه أَنْفَقَه عادةً، فإذا أَنْفَقَهُ ثانيًا عُلِمَ أن من عادته الإنفاق، فاعْتُبِرَ به، وعُدَّت له عبادة. ثم إن الإنفاقَ مَرَّتين وإن لم يَدُلَّ على كونه عادةً له في نفس الأمر، إلا أنه اكتفى به رحمةً على عباده، فكأنه إذا تكرَّر عنه الفعل، فقد دَخَلَ في حد العادة. والمرء إذا اعتاد الإنفاق في سبيل الله، تأكدت جهةُ عبادته. فإنه يدل على الاعتياد بها، فَيَحْصُلُ له الأجرُ تامًّا. ومن ههنا ظَهَرَ وجهُ كونه ميزانًا للدُّخول في الجنة"[٣]،

١ – فتح الباري لابن حجر: ١/ ١٢٨.
٢ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٤/ ١٣٣٤.
٣ – فيض الباري على صحيح البخاري: ٣/ ٣٢٦.

والمقصود من هذا كله" تشفيع صدقته بأخرى مثلها، والتنبيه على فضل الصدقة والنفقة في سبيل الله، والاستكثار منها"[١].

واختلف كذلك في المقصود بقولهﷺ:" **فِي سَبِيلِ اللَّهِ**" قيل هو الجهاد، وقيل هو أعم من الجهاد وغيره، وعليه يكون المعنى: أي في طلب ثواب الله[٢].

وقوله" **نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ**" إشارة إلى أن خزنة كل باب ينادونه، ويرشدونه بخيْريَّة كل باب منها، كل منهم يريد أن يدخل الجنة من بابه، ومعلوم أن دخول المؤمن الجنة يكون من باب واحد" ونداؤه منها كلها إنما هو على سبيل الإكرام، والتخيير له في دخوله من أيها شاء"[٣]. وفي هذا زيادة تعظيم لمن يجعل الإنفاق دأبه وعادته.

ولم يقتصر التعظيم والتكريم على ندائه من كل أبواب الجنة، وإنما بدا أيضا من خلال تنوين الخبر في قوله: " **هَذَا خَيْرٌ**"، ذكر ابن حجر أن" قوله: هذا خير ليس اسم تفضيل، بل المعنى: هذا خير من الخيرات، والتنوين فيه للتعظيم، وفائدة هذا الإخبار بيان تعظيمه"[٤].

ويمتد حبل التكريم في الحديث للصنف الأول خاصة وهو المنفق زوجين في سبيل الله من خلال التعبير معه بصيغة النداء(**نُودي**)، والتعبير في جانب الأصناف الأخرى بصيغة الدعاء(**دُعي**)؛ لما في النداء من إشهار للتكريم؛ فالنداء" هو رفع الصوت بماله معنى والعربي يقول لصاحبه ناد معي ليكون ذلك أندى لصوتنا أي أبعد له، والدعاء يكون برفع الصوت وخفضه يقال دعوته من بعيد ودعوت الله في نفسي ولا يقال ناديته في نفسي، ..... كما أن الدعاء قد يكون بعلامة من غير صوت ولا كلام، ولكن بإشارة تنبئ عن

١ – إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٣/ ٥٥٥، وشرح النووي على مسلم: ٧/ ١١٦.
٢ – ينظر: عمدة القاري:١٠/ ٢٦٤، ١٦/ ١٨٣.
٣ – السابق: ١٠/٢٦٤.
٤ – فتح الباري لابن حجر: ٤/ ١١٢.

معنى: تعال، ولا يكون النداء إلا برفع الصوت، وامتداده"[١]، فكان التعبير بالنداء في جانب الإنفاق أنسب لمقام الحديث.

وقوله:" **فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ .....إلخ**" المراد: من كان الغالب على عمله الصلاة أو الصيام أو غيرها دُعي من الأبواب المخصوصة بها، وبنيت كلها على الشرط وجوابه كالجملة الافتتاحية.

ومن الألوان البلاغية البارزة في الحديث، والتي تآزرت مع الشرط في تمكين المعنى الإيجاز، وقد ورد في عدة مواطن:

الموطن الأول: قوله" **نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ**" إيجاز بحذف المسند إليه للعلم به، وهم الخزنة على أبواب الجنة، ومثله" **دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ**" ومثيلاتها في الحديث عن الصيام والصلاة والصدقة مما ذكر في الحديث.

وأوثر التعبير بالفعل(نُودي- دُعي) في جواب الشرط دون الإخبار بدخول الجنة مباشرة، إذ هو المراد؛ لزيادة التكريم بالمناداة لهم على مرأى ومسمع من الخلائق في هذا اليوم العصيب.

الموطن الثاني: الإيجاز بحذف أكثر من جملة في قولهﷺ: " **يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ**"، إذ معناه:" هَذَا الْبَابُ فِيمَا نَعْتَقِدُهُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَبْوَابِ لِكَثْرَةِ ثَوَابِهِ وَنَعِيمِهِ فَتَعَالَ فَادْخُلْ مِنْه "[٢]، وهذا الحذف يظهر لهفة الخزنة وتشوقهم لأن يكون الدخول من باب كل واحد منهم، وهذه زيادة في الترغيب في عمل الخير والمداومة عليه.

الموطن الثالث: الإيجاز بحذف الجملة في قولهﷺ في الجواب على سيدنا أبي بكرﷺ حين سأله: " **بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا، قَالَ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»**، والتقدير: نعم، يمكن أن يدعى أحد من

١ – ينظر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ت/ الشيخ/ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، ص٥٣٤/٥٣٥، نشر/ مؤسسة النشر الإسلامي بـ(قم)، ط١، ١٤١٢هـ.

٢ – شرح النووي على مسلم:٧/ ١١٦.

جميع الأبواب تكريما له لكثرة صلاته وصيامه وغير ذلك، والحذف هنا لأنه معلوم ففي حذفه نفي للفضول من الكلام، كما أن فيه تعجيلا بالبشارة لسيدنا أبي بكر ﷺ أنه ممن يُدعَوْن من كل الأبواب؛ لطول باعه في الخير.

الموطن الرابع: من مظاهر الإيجاز في الحديث الاقتصار على أربعة أنواع فقط من أعمال البر(الإنفاق والصلاة والصيام والصدقة) لأهميتها؛ ولأنها أكثر أبواب البر ولوجا، كما أنها مفتاح كل أبواب الخير.

ومن الألوان البلاغية التي ساعدت على تمكين المعنى، وزيادة الترغيب في الحديث الطباق المعنوي، وقد ورد ذلك في قولهﷺ: " **وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ**"، طباق بين الصيام والريان، فلم يقل النبيﷺ : ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام كباقي الأنواع، إذ من مستلزمات الصيام العطش المقابل للري، يقول ابن حجر:" وهو مما وقعت المناسبة فيه بين لفظه ومعناه؛ لأنه مشتق من الري وهو مناسب لحال الصائمين"[١]، واكتفي بذكر الرّي عن الشبع وهو من مستلزمات الصوم أيضا" لأنه يدل عليه من حيث أنه يستلزمه، أو لكونه أشق على الصائم من الجوع"[٢]، فكان التعبير به مناسبا لزيادة الترغيب.

ولما كان هدف الحديث الحث على أعمال البر والمداومة عليها، وبخاصة الإنفاق كررهﷺ مرتين في مطلع الحديث" **مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ**" وفي نهايته" **وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ** "، وفي التكرار تأكيد للمكرر وترسيخ له في النفوس، وهو ما يتناسب مع مقام الحديث.

وبعد، فالحديث كما سبق في الترغيب والحث على المداومة على أعمال البر، والإكثار منها وبخاصة الإنفاق، وقد بني الحديث على أسلوب الشرط

١ – فتح الباري لابن حجر: ٤/ ١١١.
٢– ينظر : التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ١٣/ ٣٨، وفتح الباري لابن حجر: ٤/ ١١١.

وجوابه تأكيدا لتحقق الجواب عند تحقق الشرط، فكان أسلوب الشرط هو المهيمن على سياق الحديث، وكان مناسبا لمقام الحث؛ فمن العادات الشائعة لدى كل الناس وكل الطبقات حين يريد الإنسان الحث على فعل شيء ما فإنه يَعِد بجائزة على فعله، وتآزر معه في تمكين المعنى بعض الألوان البلاغية الأخرى كالإيجاز والطباق المعنوي والتكرار وغيرها مما ساعد على أن يكون الحديث بنيانا متماسكا، وطريقا معبَّدا موصلا إلى الهدف.

****

الحديث الثاني:

خيْريَّة الصدقة عن ظهر غنى

عنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ»[١].

ومعنى الحديث كما ذكر ابن حجر: "أفضل الصدقة ما وقع من غير محتاج إلى ما يتصدق به لنفسه أو لمن تلزمه نفقته"[٢].

ومقام الحديث الترغيب في الصدقة، والتزهيد في السؤال.

وقد جاءت ألفاظ الحديث وتراكيبه متناسقة مع مقام الترغيب، وقد بدا ذلك من خلال عدة مظاهر بلاغية منها:

الطباق الذي اشتملت عليه الجملة الافتتاحية" **اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى**"، حيث طابق بين العلو والسفل لتأكيد ذم المسألة، وإظهار ما بين الإعطاء والأخذ من بون شاسع، " وأراد بالعلو علو الفضائل وكثرة الثواب"[٣]، والمشهور عند العلماء أن المقصود باليد العليا المعطية، واليد السفلى الآخذة، وبناءً عليه يكون في الوصف بالعلو والسفل كناية عن صفتي العطاء والأخذ، وتبدو روعة الكنايتين هنا في تصوير اليد المعطية في مكانة عالية مشرّفة، وتصوير اليد الآخذة في صورة ساقطة مخزية، وهو ما يزيد في الترغيب والتحبيب في الصدقة ويحث عليها، وذكر ابن حجر أنه قرأ في تأويل الحديث معنى آخر هو أن" الْيَد هُنَا هِيَ النِّعْمَةُ وَكَأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ الْعَطِيَّةَ الْجَزِيلَةَ خَيْرٌ مِنَ الْعَطِيَّةِ الْقَلِيلَةِ، قَالَ: وَهَذَا حَثٌّ عَلَى الْمَكَارِمِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ، وَيَشْهَدُ لَهُ أَحَدُ التَّأْوِيلَيْنِ فِي قَوْلِهِ مَا أَبْقَتْ غِنًى أَيْ مَا حَصَلَ بِهِ لِلسَّائِلِ غِنًى عَنْ سُؤَالِهِ ..... قَالَ وَهُوَ أَوْلَى مِنْ حَمْلِ الْيَدِ عَلَى الْجَارِحَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَسْتَمِرُّ إِذْ فِيمَنْ

١ – صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب: لا صدقة إلا عن ظهر غنى، ح(١٤٢٧)، ٢/ ١١٢.
٢ – فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٢٩٧.
٣ – فيض القدير: ٣/ ٤٧٥.

يَأْخُذُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِمَّنْ يُعْطِي، قُلْتُ التَّفَاضُلُ هُنَا يَرْجِعُ إِلَى الْإِعْطَاءِ وَالْأَخْذِ وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ الْمُعْطِي أَفْضَلَ مِنَ الْآخِذِ عَلَى الْإِطْلَاقِ"(١)، وعليه يكون إطلاق اليد هنا على النعمة من قبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية كما هو مشهور في كتب البلاغة.

ومن المظاهر البلاغية التي اشتملت عليها الجملة الافتتاحية أيضا التأكيد بتكرار اليد، وكان يمكن أن يفهم المعنى بدونها، كما لو قيل: اليد العليا خير من السفلى، ولكن التكرار هنا أبرز اليدين في صورتين مستقلتين بينهما أشد التناقض؛ ليفتح المجال للمتلقي أن يقارن بينهما فيختار أي المنزلتين يريد أن يلحق، وهو ما يتناغى مع مقام الترغيب والحث.

والأمر في قوله ﷺ:" **وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ** " تأكيد للجملة قبله" **اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى**"، حيث أراد النبيﷺ أن ينقلنا من الإخبار المجرد في صدر الحديث إلى التطبيق العملي **ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ**، وهذا تأكيد للحث على الصدقة.

ولم يقتصر التأكيد على ما سبق وإنما جاء أيضا في الجملة التالية" **وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى**"، ومعناه " أفضل الصدقة ما بقي صاحبها بعدها مستغنيا بما بقي معه، وتقديره: أفضل الصدقة ما أبقت بعدها غنى يعتمده صاحبها ويستظهر به على مصالحه وحوائجه"(٢)، وقد بدا التأكيد هنا في زيادة الظهر **(عَنْ ظَهْرِ غِنًى)**، فلفظ الظهر يرد في مثل هذه المواضع ليفيد كما ذكر ابن حجر إشباع الكلام(٣)، فأفادت زيادته" تمكن المتصدق عن غنى، وذلك مثل قولهم: هو على ظهر سير، وراكب متن السلام، وغير ذلك من

١- فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٢٩٨.
٢ - شرح النووي على مسلم: ٧/ ١٢٥.
٣ - ينظر: فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٢٩٦.

الألفاظ التي يعبر بها عن التمكن من الشيء"[١]. وقال البغوي: المراد غنى يستظهر به على النوائب التي تنوبه[٢].

ويستمر التأكيد سمة بارزة في الحديث من أوله إلى نهايته، فيختم به الحديث، وذلك قولهﷺ:" **وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ**"، والتأكيد هنا من خلال الشرط المكرر؛ لتأكيد عون المولى سبحانه لمن يطلب العفة والغنى حتى لا يكون من أصحاب اليد السفلى، وزاد الأمر تأكيدا بتكرار لفظ الجلالة في الجملة الثانية، وهو ما يتجاوب مع مقام الحث والترغيب.

وهكذا كان الغرض من الحديث الترغيب في الصدقة والإنفاق، وكان أسلوب التوكيد بصوره المختلفة هو الأبرز في سياق الحديث، وتضامن معه في تمكين المعنى بعض الألوان البلاغية الأخرى كالطباق وغيره، وكانت غاية في البلاغة والبيان.

ويمكن الربط بين ما جاء في هذا الحديث وما جاء في القرآن الكريم من خلال أن القرآن الكريم حين دعا إلى الإنفاق دعا أن يكون ذلك ببعض المال وليس الكل[٣]، حتى يظل المؤمن مستغنيا عفيفا كما في قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾** ﴾ (البقرة:٢٦٧) ، وغيرها كثير، وجاءت السنة تؤكد على هذا المعنى من خلال هذا الحديث الذي يبين خيْريَّة الصدقة عن ظهر غنى، وغيره؛ مما يبرز وحدة الهدف بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. والله أعلم.

*****

١ – فيض الباري على صحيح البخاري: ٣/ ١٠٥.

٢ – ينظر: فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٢٩٦.

٣– اختلف العلماء حول جواز الصدقة بجميع المال على وجوه. ينظر: شرح النووي على مسلم: ٧/ ١٢٥، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح: ١٠/ ٣٢٠، ٣٢١.

الحديث الثالث:

خيْريَّة إطعام الطعام وإفشاء السلام

الإسلام دين المحبة والمودة والإخاء، دين الترابط والتكاتف والتعاون والتراحم، يحث على كل ما يحقق هذه الأهداف السامية، ويرغّب في الوسائل المؤدية إليها، وأهم هذه الركائز إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وقد عبر الحديث التالي أوضح تعبير عن هاتين الوسيلتين في قولهﷺ :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم –: أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»(١).

ومقام الحديث الحث على إطعام الطعام وإفشاء السلام؛ لما لهما من دور مهم في تقوية المجتمع المسلم، وتزكية روح المحبة والمودة بين جميع أفراده، وأن أفضل خلقهم الإسلامية ألفة بعضهم بعضاً، وتحببُهم وتوادّهم، واستجلاب ما يؤكد ذلك بينهم بالفعل والقول.

وقد جاء ذلك من خلال إجابتهﷺ عن سؤال وجه إليه: "**أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟**"، ومعناه: أي خصال الإسلام خير بعد التوحيد، فيجيبﷺ:«**تُطْعِمُ الطَّعَامَ**"

وهذه الجملة على إيجازها إلا أنها تفيض بالأسرار البلاغية منها:

أولا: الإيجاز بالحذف: وقد ورد الحذف في هذه الجملة من طرفيها، فحذف المسند إليه وأن المصدرية في بدايتها، والتقدير: هو أن تطعم الطعام، أو خير خصال الإسلام أن تطعم الطعام، والحذف هنا لأنه معلوم، حيث دل عليه دليل وهو وقوعه في جواب السؤال فحذف اختصارا لاقتضاء المقام ، كذلك حذفت أن المصدرية قبل الفعل" تطعم" وهي تخلص الفعل للاستقبال؛"

١ – صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب: إطعام الطعام من الإسلام، ح(١٢)، ١/ ١٢، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، ح(٣٩)، ١/ ٦٥.

ليأتي الفعل بصورة المحتمل للحال إظهارًا للرغبة في حصوله والتعجيل به للمحتاج إليه"[١]، وأيضا حذف متعلق الفعل" تطعم"، والتقدير: تطعم الخلق أو أي كائن، حيث إن الفعل" تطعم" يتعدى لمفعولين، فحذف المفعول الأول منهما ليدل على عموم الإطعام، وهو ما يتناغى مع مقام الحث على الإطعام.

ثانيا: إيثار التعبير بالإطعام" تطعم" دون تؤكل ونحوه من الألفاظ الدالة عليه وذلك لأن" لفظ الإطعام عام يتناول الأكل والشرب والذوق"[٢]، وعلى هذا فالتعبير به يتناول الضيافة والإعطاء وسائر الولائم، كما يتناول أيضا إطعام الفقراء وغيرهم، وبذلك تضامن التعبير به هنا مع الإيجاز بالحذف للدلالة على العموم وهو ما يقوي هذه الدلالة، ويساعد على تمكينها في النفوس.

ثالثا: تقديم الإطعام على السلام هنا، لأن" كَون إطْعَام الطَّعَام من الْإِسْلَام أقوى وآكد من كَون إقراء السَّلَام مِنْهُ، وَلِأَن السَّلَام لَا يخْتَلف بِحَال من الْأَحْوَال بِخِلَاف الْإِطْعَام، فَإِنَّهُ يخْتَلف بِحَسب الْأَحْوَال، فأدناه مُسْتَحبّ وَأَعلاهُ فرض. وَبَينهمَا دَرَجَات أخر"[٣]؛ فالتقديم للأهمية تناسبا مع حال السائل، كما أن الإطعام عام فهو" غير مختص بأحد، سواء كان المطعَم مسلما أو كافرا أو حيوانا"[٤]، هذا فضلا عن أن" الدعوة إلى الطعام تجمع الأمرين: السلام والطعام"[٥].

موازنة:

جدير بالذكر أنه ورد حديث آخر أخرجه الإمام أحمد قُدم فيه السلام على الإطعام نصُه" **عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ – صلى الله**

١ – الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج:٢/ ٣٤٣.
٢ – عمدة القاري: ١/ ١٣٨.
٣ – عمدة القاري: ١/ ١٣٧.
٤ – السابق: ١/ ١٣٨.
٥ – فتح المعلم شرح صحيح مسلم: ٥/ ٥٦٨.

عليه وسلم – انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»[1]، وقد لاءم كل منهما مقامه؛ فالحديث الذي نحن بصدده لما كان إجابة عن سؤال منفرد لأحد الناس يتعلق بخيْريَّة خصال الإسلام وأفضلها؛ فقدم الأقوى والأكثر ثوابا وهو الإطعام لأنه أشق على النفس من السلام، والثواب متعلق بالمشقة، كما يمكن أن يكون قد بدا للنبيﷺ أن الأنسب لحال السائل تقديم الإطعام، أما الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد فهو كما يتضح من سياقه أن المقام مقام اجتماع وألفة وإقبال للناس عليهﷺ وهذا واضح من الجملة" **انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ**"، أي: ذهبوا مسرعين نحوه[2]، ومثل هذا يناسبه تقديم السلام. مثلما ناسبه التعبير بالإفشاء الدال على كمال الانتشار في قولهﷺ:" **أَفْشُوا السَّلَام** " .أ.هـ

والخصلة الثانية من خير خصال الإسلام التي أرشد النبيﷺ السائل إليها هي إفشاء السلام، وتمثلت في قولهﷺ" **وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**". وهي جملة مليئة بالأسرار البلاغية كسابقتها، وأول ما يطالع المتلقي من هذه الأسرار، حذف أن المصدرية كما حذفت من الجملة الأولى للتعجيل بالسلام للمحتاج إليه؛ فقد يلقى الإنسان أحدا لا يعرفه فيتملكه الخوف منه فتكون المبادرة بالسلام لتطمينه وتهدئته.

١- مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣٩/ ٢٠١، ح(٢٣٧٨٤)، ت/ شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، نشر/مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ /٢٠٠١م، وصححه الإمام الألباني، وهذا الحديث رواه الإمام الترمذي أيضا عن عبدالله ابن عمرو بتقديم الإطعام كما في الحديث الذي معنا. ينظر: سنن الترمذي: كتاب الأطعمة،= باب: ما =جاء في فضل إطعام الطعام، ٤/ ٢٨٧، ح(١٨٥٥)، ت/ أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة، نشر/ مكتبة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٢ – ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: (جفل)، ١/ ٢٧٩، ت/ طاهر أحمد الزاوي، محمود الطناحي، نشر/ المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. ولسان العرب لابن منظور: (جفل)، ١١/ ١١٤، نشر/ دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

ومن البلاغة العالية في الحديث اختيار لفظة دون مرادفها لما في اللفظ المعبر به من معنى زائد، كما رأينا في التعبير باللفظ" تطعم" دون تؤكل في الجملة الأولى، وكما في التعبير بالقراءة هنا" تقرأ السلام" دون تسلّم؛ ولعل ذلك للإشارة إلى أن تحية المسلمين تكون بلفظ السلام؛ فعدل عن التسليم إلى القراءة؛ تنبيها على تخصيص هذه اللفظة في التحيات بين المسلمين[١]، أي كأنه يقرأ شيئا مكتوبا لا يملك أن يغيره، كما أن فيه إشارة للمسلَّم عليه أنه" حين يبلغه السلام يحمله على أن يقرأ السلام ويرده"[٢]، وهذه وسيلة لانتشاره وذيوعه.

وتأنق طباق السلب في قولهﷺ :" **عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**" لتأكيد عمومية السلام، وضرورة انتشاره بين المسلمين، وتآزر معه في زيادة التأكيد التعبير بعلى دون اللام، إذ معناها: السلام مشتمل عليكم، مما يبالغ في تأكيد العموم، وهذا التأكيد القوي لما" في بذل السلام لمن عرفت ولمن لم تعرف من إخلاص العمل فيه لله تعالى لا مصانعة ولا مَلقاً، لمن تعرف دون من لا تعرف، وجاء فى الحديث: " إن السلام آخر الزمان يكون معرفة ". وفيه مع ذلك استعمال خلق التواضع وإفشاء شعار هذه الأمة، من لفظ السلام ومن قوله: " أفشوا السلام بينكم "[٣]، هذا فضلا عما في السلام لغير المعرفة من" استفتاح للخلطة؛ ليكون المؤمنون كلهم إخوة؛ ولا يستوحش أحد من أحد"[٤].

وبالتأمل يدرك المتلقي أن العموم هنا ليس على إطلاقه كما هو مع الإطعام، فالجملة:" **وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**" وإن كان

١ – ينظر: عمدة القاري: ١/ ١٣٨.
٢ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٧/ ٢٩٣٦.
٣ – إكمال المعلم بفوائد مسلم: ١/ ٢٧٦.
٤ – التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ٢٩/ ٤٣.

ظاهرها العموم إلا أنه عموم خاص بالمسلمين فقط، حيث لا يُبدأ أهل الكتاب بالسلام كما هو مشهور عند جمهور العلماء[١].

ومن الألوان البلاغية التي تمكّن الحث والحض على إطعام الطعام وقراءة السلام في الحديث الوصل بين الجملتين" **تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ**"؛ للإلماح إلى ضرورة الجمع بين الإطعام والسلام حتى ينال السائل درجة الخيْريَّة، دون الاقتصار على واحدة منهما، إذ بهما" يجتمع الإحسان بالقول والفعل وهو أكمل الإحسان"[٢]، وعبر بالمضارع" تطعم وتقرأ" لإفادة الاستمرار التجددي، وإسنادهما إلى السائل مع أنهما عامان لكل أحد؛ ليكون ذلك أدعى إلى الامتثال والعمل، وهو ما يساعد مقام الحث على فعلهما.

ويمكن أن يكون الحديث من قبيل الخبر المضمن معنى الأمر؛ لتأكيد الحث على الامتثال للأمر، والالتزام بتنفيذ المأمور به بأريحية وإقبال عليه؛ لما في الأمر المباشر –غالبا– من ثقل على النفس، وهو ما يتضامن مع مقام الحث.

يقول الزمخشري رحمه الله:" إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله"[٣]. هذا فضلا عن " أن الخبر يحمل من التأكيد ما لا يحمله الإنشاء"[٤].

وبعد، فالحديث على إيجازه إلا أنه اشتمل على الكثير من الأسرار البلاغية التي تتناسب مع مقام الحث على الالتزام ببعض الوسائل التي تعمل على نشر المحبة والألفة بين أفراد المجتمع المسلم، ومن أهمها إطعام الطعام

١ – ينظر: فتح الباري لابن رجب الحنبلي: ١/ ٤٤.
٢ – السابق: ١/ ٤٣.
٣ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري: ١/ ٢٧٠، نشر/ دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٤ – من بلاغة النبيﷺ في بيانه عن المرأة، دراسة في الصحيحين، د/ سعيد جمعة،صـ١٥٤، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالقاهرة، عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

وإفشاء السلام ، وقد قيل: ليس شيء أجلب للمحبة، وأثبت للمودة، وأسل للسخائم، وأتقى للجرائم من إطعام الطعام، وإفشاء السلام[١].

وفي النهاية تجدر الإشارة إلى أن خيْريَّة هذه الأمور تكون بعد الالتزام بالفرائض والواجبات" فمن أتى بفرائض الإسلام ثم ارتقى إلى درجة الإحسان إلى الناس كان خيرا ممن لم يرتق إلى هذه الدرجة وأفضل، وليس المراد أن من اقتصر على هذه الدرجة فهو خير من غيره مطلقا، ولا أن إطعام الطعام ولين الكلام خير من أركان الإسلام ومبانيه الخمس، فإن إطعام الطعام والسلام لا يكونان من الإسلام إلا بالنسبة إلى من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر"[٢]، كما تجدر الإشارة أيضا إلى أنه لا تعارض بين هذا الحديث والحديث الآخر الذي يخبر فيه النبيﷺ بأن خير المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ أَبِي الْخَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[٣]، فالنبيﷺ كان يجيب كل سائل بما يتناسب مع حاله، يقول الإمام النووي رحمه الله:" وَإِنَّمَا وَقَعَ اخْتِلَافُ الْجَوَابِ فِي خَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لِاخْتِلَافِ حَالِ السَّائِلِ وَالْحَاضِرِينَ، فَكَانَ فِي أَحَدِ الْمَوْضِعَيْنِ الْحَاجَةُ إِلَى إِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ أَكْثَرُ وَأَهَمُّ؛ لِمَا حَصَلَ مِنْ إِهْمَالِهِمَا وَالتَّسَاهُلِ فِي أُمُورِهِمَا وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَفِي الْمَوْضِعِ الْآخَرِ إِلَى الْكَفِّ عَنْ إِيذَاءِ الْمُسْلِمِينَ"[٤]، فلاءم كل منهما مقامه. والله أعلم.

*****

١ – ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصغير: ٢/ ٥٠٣.
٢ – فتح الباري لابن رجب الحنبلي: ١/ ٤٣.
٣ – صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، ١/ ٦٥، ح(٤٠).
٤ – شرح النووي على صحيح مسلم: ٢/ ١٠.

المبحث الثالث

البلاغة النبوية في أحاديث خيْريَّة الجهاد

توطئة:

الجهاد من أهم الأمور التي دعا إليها الإسلام، وتكررت الدعوة إليه، والحث عليه في القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ وذلك لما فيه من رفع راية الإسلام، وتقوية شوكة الدين، ونشر دعوة الإسلام في كل مكان، وحماية الأمة المسلمة من أي خطر قد يداهمها.

ولأهمية الجهاد وعد الله – سبحانه– المجاهدين بالأجر العظيم والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة، وأخبر أن من يلقى حتفه مجاهدا فهو شهيد لا يموت؛ وإنما يرتفع إلى مكانة أسمى عند ربه يلازمه فيها الفرح بعظم الجزاء، والاستبشار بإخوانه الذين لم يلحقوا به.

وقد ورد في كلام النبيﷺ أحاديث كثيرة في بيان فضل الجهاد، والحث عليه، وبيان خيْريَّته على غيره من الأمور، جاء في الصحيحين منها:

الحديث الأول: خيْريَّة الغدوة والروحة في سبيل الله

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1].

ومعنى الحديث كما ذكر العيني:" أَنَّ فَضْلَ الْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَثَوَابَهُمَا خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا لو ملكها إنسان وَتَصَوَّرَ تَنَعُّمَهُ بِهَا كُلِّهَا؛ لِأَنَّهُ زَائِلٌ وَنَعِيمَ الْآخِرَةِ بَاقٍ، قَالَ الْقَاضِي وَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ وَمَعْنَى نَظَائِرِهِ مِنْ تَمْثِيلِ أمور الآخرة وثوابها بأمور الدنيا أنها: خير من الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ مَلَكَهَا

١– صحيح البخاري: كتاب: الجهاد والسير، باب: الغدوة والروحة في سبيل الله، وقاب قوس أحدكم من الجنة، ٤/ ١٦، ح(٢٧٩٢)، وصحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب: فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، ٣/ ١٤٩٩، ح(١٨٨٠). والغَدْوَة: الْمَرَّةُ مِنَ الغُدُوِّ، وَهُوَ سَيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ، نَقِيض الرَّواح. وَقَدْ غَدَا يَغْدُو غُدُوّاً. والغُدْوَة بِالضَّمّ: مَا بَيْنَ صَلَاةِ الغَدَاة وَطُلُوعِ الشَّمْسِ. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: (غدا) ٣/ ٣٤٦.

إِنْسَانٌ وَمَلَكَ جَمِيعَ مَا فِيهَا وَأَنْفَقَهُ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ وَلَيْسَ تَمْثِيلُ الْبَاقِي بِالْفَانِي عَلَى ظَاهِرِ إِطْلَاقِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ"(١).

ومقام الحديث الحث على الجهاد في سبيل الله تعالى؛ ببيان فضل الغدو والرواح إليه.

والحديث على الرغم من أنه قد انتظم معناه جملة واحدة إلا أنها اشتملت على عدة ظواهر بلاغية وفّت بالدلالة على الغرض منه، ومن أبرز الظواهر البلاغية في الحديث، التأكيد، وقد ورد في موضعين:

الأول: التأكيد باللام في قولهﷺ:" **لَغَدْوَةٌ**"؛ لتأكيد خيْريَّة الغدوة والروحة إلى الجهاد، وما لها من ثواب عظيم، وذكر ابن حجر أن اللام للقسم(٢)، وذكر الهروي أنها للابتداء أو القسم(٣)، ولا يتخلى عنها التوكيد في كل.

الثاني: التأكيد من خلال الطباق بين الغدوة والروحة، لتأكيد حصول الثواب العظيم للغادي أو الرائح في سبيل الله تعالى.

و" **أو**" للتقسيم والتنويع لا للشك، والمعنى:" أَنَّ الرَّوْحَةَ يَحْصُلُ بِهَا هَذَا الثَّوَابُ وَكَذَا الْغَدْوَةُ، وَالظَّاهِرُ أنه لا يختص ذَلِكَ بِالْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ مِنْ بَلْدَتِهِ بَلْ يَحْصُلُ هَذَا الثَّوَابُ بِكُلِّ غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ فِي طريقه إلى الغزو وكذا غدوة وَرَوْحَةٍ فِي مَوْضِعِ الْقِتَالِ لِأَنَّ الْجَمِيعَ يُسَمَّى غَدْوَةً وَرَوْحَةً فِي سَبِيلِ الله"(٤).

ومما يزيد الحث على الجهاد التعبير باسمي المرّة(الغدوة والروحة)؛ للدلالة على أن من يغدو أو يروح مرة واحدة إلى الجهاد في سبيل الله يحصّل الثواب العظيم الموعود به في الحديث، وفي هذا زيادة ترغيب في الجهاد، واستنهاض للهمم للخروج والمسارعة إليه، فإذا كان هذا جزاء من يخرج للجهاد

١ – شرح النووي على مسلم: ١٣/ ٢٦، ٢٧.
٢ – ينظر: فتح الباري لابن حجر: ٦/ ١٤،
٣ – ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٦/ ٢٤٥٧.
٤ – شرح النووي على مسلم: ١٣/ ٢٦.

مرة واحدة فما بالنا بمن يكرر الخروج إليه، ويكون دائما على أهبة الاستعداد للذود عن حياض الدين؛ مما يظهر مكانة الجهاد ومنزلته من الدين.

وفي قولهﷺ:" **أَوْ رَوْحَةٌ**" إيجاز بحذف (في سبيل الله)، والتقدير: لغدوة في سبيل الله أو روحة في سبيل الله، فحذفت الصفة لدلالة ما قبلها عليها، يقول العيني:" (لغدوة) مُبْتَدأ تخصص بِالصّفةِ وَهُوَ قَوْله: (فِي سَبِيل الله) ، وَالتَّقْدِير: لغدوة كائنة فِي سَبِيل الله. قَوْله: (أَو رَوْحَة) ، عطف عَلَيْهِ"(١).

وقولهﷺ:" **خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**"، "يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ تَنْزِيلِ الْمَغِيبِ مَنْزِلَةَ الْمَحْسُوسِ تَحْقِيقًا لَهُ فِي النَّفْسِ لِكَوْنِ الدُّنْيَا مَحْسُوسَةً فِي النَّفْسِ مُسْتَعْظَمَةً فِي الطِّبَاعِ فَلِذَلِكَ وَقَعَتِ الْمُفَاضَلَةُ بِهَا، وَإِلَّا فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الدُّنْيَا لَا يُسَاوِي ذَرَّةً مِمَّا فِي الْجَنَّةِ، وَالثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي يَحْصُلُ لِمَنْ لَوْ حَصَلَتْ لَهُ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَأَنْفَقَهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالى"(٢).

ومن دقة البيان النبوي هنا اختيار المفضّل عليه(الدنيا وما فيها)(٣)، ولعل ذلك لما" اسْتَقر فِي النُّفُوس من تَعْظِيم ملك الدُّنْيَا، وَأما التَّحْقِيق: فَلَا تدخل الْجنَّة مَعَ الدُّنْيَا تَحت أفعل إِلاَّ كَمَا يُقَال: الْعَسَل أحلى من الْخلّ"(٤)، " فخاطبناﷺ بما نألف"(٥)، وأرى – إضافة إلى ما سبق– أن اختيار الدنيا هنا له دلالته؛ إذ حبها هو الذي يلهي الناس عن الجهاد؛ فاختير التعبير به لتحقيرها وتصغير شأنها وهو ما يساعد على الحث على الجهاد الذي هو هدف الحديث، وقد" ورد أن أقل أهل الجنة منزلة من يعطى قدر الدنيا عشر مرات

١ – عمدة القاري: ١٤/ ٩٢.
٢ – تحفة الأحوذي: ٥/ ٢٣٥.
٣ – اختلف شراح الحديث حول المقصود بالدنيا هنا، فقيل: إنها كل المخلوقات من الجواهر، والأعراض الموجودة قبل الدار الآخرة، وقيل: إنها ما على الأرض من الهواء والجو= =والثاني هو الموافق للعطف في قوله: (من الدنيا وما فيها). ينظر: منحة الباري بشرح صحيح البخاري: ٥/ ٦١٠.
٤ – عمدة القاري: ١٤/ ٩٢.
٥ – دليل الفالحين: ٧/ ٨٨.

فما بالك بأوساطهم، فضلاً عن أعلاهم"[١]، جعلنا الله والمسلمين جميعا من سكنى عليائها.

ولم يقتصر التعبير على الدنيا فقط وإنما أُكد بقولهﷺ:" **وما فيها**" لإفادة الاستقصاء والشمول وعموم الخيْريَّة، وهو ما يزيد في الترغيب والحث على الجهاد؛ ولهذا" ينبغي أن يغتبط صاحب الغدوة والروحة بغدوته وروحته أكثر مما لو حصلت له الدنيا بحذافيرها نعيما محضا غير محاسب عليه مع أن هذا لا يتصور"[٢]، وهذه الرواية – في نظري– أبلغ من الرواية الأخرى التي أخرجها البخاري أيضا عن أبي هريرة ﷺ **«لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ»**[٣]؛ لما في الرواية التي معنا من عموم وشمول يتناسب مع مقام الحث؛ حيث إن حديث" وما فيها يشمل ما تحت طباقها مما أودعه الله تعالى فيها من الكنوز وغيرها، وحديث: ما طلعت عليه الشمس وغربت يشمل ما تطلع وتغرب عليه من بعض السماوات لأنها في الرابعة أو السابعة على الخلاف"[٤]، فكان التعبير" وما فيها" أشمل وهو ما يتناغى مع الحث والترغيب في الجهاد.

وبعد، فالحديث مع أنه مكون من جملة واحدة إلا أنها أدت الغرض منه، وهو الحث والترغيب في الجهاد، وبيان الجزاء العظيم المترتب عليه، واعتمدت الجملة بعض الألوان البلاغية التي مكنت للغرض كالتأكيد والإيجاز بالحذف وغيرها، وكانت غاية في الفصاحة والبلاغة.

بقي أن أشير إلى أن القرآن الكريم قد تحدث عن جزاء المجاهدين، وأن الله يهديهم سبيله، كما في قوله تعالى:: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ

١ – دليل الفالحين: ٧/ ٨٨.
٢ – إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ٥/ ٣٩.
٣ – صحيح البخاري: كتاب: الجهاد والسير، باب: الغدوة والروحة في سبيل الله، وقاب قوس أحدكم من الجنة، ٤/ ١٧.
٤ – إرشاد الساري شرح صحيح البخاري: ٥/ ٣٩.

﴿ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (العنكبوت :٦٩)، وامتدحهم سبحانه في مواطن عديدة في كتابه، وبيّن منزلة الشهداء منهم وأنهم مع النبيين والصديقين، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وكل هذا يقتضي الحث على الجهاد والترغيب فيه، وجاءت السنة النبوية أيضا في هذا الحديث وغيره على الدرب نفسه تحث على الجهاد وترغب فيه ببيان وسائل أخرى للتحفيز كان من بينها بيان خيْريَّته على الدنيا وما فيها كما في هذا الحديث، مما يؤكد وحدة المنبع بين البلاغة النبوية والبلاغة القرآنية، وأنه ﷺ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣ – ٤).

*****

الحديث الثاني

خيْريَّة رباط يوم وليلة في سبيل اللَّه

عَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ»[1].

والحديث يبين فضل الرباط في سبيل الله، وعظيم الجزاء الذي يلقاه المرابط.

ومقام الحديث حث وترغيب بالغ في الثواب المترتب على الرباط؛ حيث لم يقتصر الحث والترغيب على موعود واحد، وإنما تعددت الموعودات؛ ولعل ذلك لأن" حراسة المسلمين من أعدائهم مهمة لا تقل عن الجهاد والقتال، بل إن النتيجة لها أعظم غالبا من الجهاد، فقد قيل: الوقاية خير من العلاج، ثم إن تعرُّض المرابط للخطر أشد من تعرُّضه للقتال، فكثيرا ما يكون المرابطون قلة عددا وعدة عن العدو، وهو هدف محصور في مواجهته، من هنا كان الترغيب فيه بثواب أعظم، فالمجاهد الغازي كالقائم الليل الصائم النهار من حين يخرج إلى حين يعود، فيومه بصيام يوم، وليلته بقيام ليلة، أما المرابط فيومه بصيام شهر، وليلته بقيام ليالي شهر، بل المرابط يضاف إلى عمله بعد موته استمرارية أجر المرابط ما شاء الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"[2].

---

١ – صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، ح(١٩١٣)، ٣/ ١٥٢٠. والرِّبَاطُ فِي الْأَصْلِ: الْإِقَامَةُ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ بِالْحَرْبِ، وَارْتِبَاطُ الْخَيْلِ وَإِعْدَادُهَا، ... قَالَ الْفُتَيبِي: أَصْل الْمُرَابَطَةِ أَن يَرْبِطَ الفَرِيقان خيولَهم فِي ثَغْر، كُلٌّ منْهُما مُعدٌّ لِصَاحِبِهِ «١» فسُمِّي المُقام فِي الثُّغور رِبَاطاً. وَمِنْهُ قَوْلُهُ «فذَلِكم الرِّبَاطُ» أَيْ أَنَّ المواظَبة عَلَى الطَّهارة وَالصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ. كَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَكُونُ الرِّبَاطُ مَصْدرَ رَابَطْتُ: أَيْ لازَمْت. النهاية في غريب الحديث والأثر: (ربط)، ٢/ ١٨٥، ١٨٦.

٢ – فتح المنعم بشرح صحيح مسلم: ٧/ ٥٨٤. واختلف هل الرباط أفضل أم الجهاد على أقوال. ينظر: فيض القدير: ٤/ ١٤، والكوكب الوهاج: ٢٠/ ٢٧٠.

ولا تعارض بين هذا الحديث والحديث الجامع الذي أخرجه البخاري **عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –، قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ الغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»**[١]؛ لأن " صيام شهر وقيامه خير من الدنيا وما عليها"[٢]. كما أن" فضل الله مستزاد وجوده وكرمه متوال كل وقت ويمكن كون ذلك بحسب اختلاف الزمن والعمل والعامل"[٣].

وقولهﷺ: " **رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ**" المقصود صيام التطوع لا الفريضة، وذكر فيه اليوم والليلة وما بينهما من طباق للإشعار بأن أقل الرباط المتحقق فيه الخيْريَّة يوم وليلة[٤]، وذكر صاحب مرقاة المفاتيح: أن فيه لفا ونشرا مرتبا[٥]، وعليه يكون رباط اليوم في مقابلة خيْريَّة الصيام شهرا، ورباط ليلة خير من قيام شهر، وعلّل ابن علان خيْريَّة الرباط على صيام شهر وقيامه بأن" نفع الرباط متعد وعام، ونفعها قاصر خاص"[٦]؛ مما اقتضى قوة الحث عليه.

وقولهﷺ:" **وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ**" ثواب آخر يتحصل عليه المرابط إضافة إلى ما سبق، وهو فضيلة مختصة به، أن عمله يجري له بعد موته، وإيراد هذا الجزاء في سياق أسلوب الشرط وجوابه تأكيد للجزاء، وهو استمرار تجدد ثواب عمله الذي كان يعمله كأنه يعمله فعلا إن مات مرابطا، وحُذف المسند إليه في قوله:" **وَإِنْ مَاتَ** " أي المرابط، إيجازا لدلالة المقام عليه، وفي قوله:" **جَرَى**" استعارة تبعية، حيث إن معناها: قُدّر

١ – صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: فضل رباط يوم في سبيل الله، ٤/ ٣٥، ح(٢٨٩٢).
٢ – فتح المنعم بشرح صحيح مسلم: ٧/ ٥٨٥.
٣ – فيض القدير: ٤/ ١٣.
٤ – ينظر: فتح المنعم بشرح صحيح مسلم: ٧/ ٥٨٥.
٥ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٦/ ٢٤٥٧.
٦ – دليل الفالحين: ٧/ ٩١.

عليه من العمل بعد الموت كما كان يعمل قبل الموت، كقولنا: جرى عليه القضاء، فاستعير الجري للتقدير، وفضل الاستعارة هنا لما في الجري من سرعة تقتضي سرعة حصول الثواب ووصوله إليه، وهو الأوفق لمقام الحث.

وتقديم المتعلق(الجار والمجرور) "**عَلَيْهِ**" على المسند إليه في قولهﷺ: " **جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ**"؛ لإفادة التخصيص، أي أن هذا الثواب مختص بالمرابط لا يتعداه إلي غيره، يقول الإمام النووي – رحمه الله–:" هَذِهِ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْمُرَابِطِ وَجَرَيَانُ عَمَلِهِ عليه بَعْدَ مَوْتِهِ فَضِيلَةٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَقَدْ جَاءَ صَرِيحًا فِي غَيْرِ مُسْلِمٍ كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمَ الْقِيَامَة"[١].

وقولهﷺ:" **وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ**" معناه: أن الله تعالى" يرزقه في الجنة كما يرزق الشهداء الذين تكون أرواحهم في حواصل الطير تأكل من ثمر الجنة"[٢]، وتقديم المتعلق لإفادة الاختصاص أيضا كسابقه، وهو من قبيل القصر الإضافي حيث إن الشهداء يشتركون مع المرابط في هذا الثواب، كما في قوله تعالى:﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ (آل عمران:١٦٩).

١ – شرح النووي على مسلم: ١٣/ ٦١.وقد أخرج الإمام الترمذي – رحمه الله – عَبْدُ اللَّهِ بْنُ المُبَارَكِ قَالَ: أَخْبَرَنَا حَيْوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو هَانِئٍ الخَوْلَانِيُّ، أَنَّ عَمْرَو بْنَ مَالِكٍ الجَنْبِيَّ، أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ، يُحَدِّثُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنْمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ». سنن الترمذي: ت/ أحمد محمد شاكر، أبواب فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل من مات مرابطا، ٤/ ١٦٥، ح(١٦٢١)، نشر/ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– مصر،ط٣، ١٣٩٥هـ /١٩٧٥م، وصححه الألباني.

٢ – الكوكب الوهاج : ٢٠/ ٢٧٠.

وقولهﷺ :" **وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**"[١]، جزاء آخر يضاف إلى مجموع الجزاءات التي يحصل عليها المرابط، وهو ما يزيد الحث والاستنهاض الذي هو هدف الحديث.

وألحظ هنا لطيفة في ختم هذه الوعود بالأمن من الفتَّان؛ لما فيه من تناسب يتوافق مع الحديث عن الرباط وجزاء المرابط؛ وذلك أنه نظرا لما يكون فيه المرابط من خوف دائم، وترقب مستمر، وقلق ملازم في الدنيا؛ كان الجزاء مناسبا وهو الأمن في القبر، والنجاة من فتنته، فالجزاء من جنس العمل.

والوصل بين الجمل الثلاث:" **جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**" للتوسط بين الكمالين يبرز عظم جزاء المرابط، وأنه ليس مقتصرا على شيء واحد، وإنما ثلاثة أشياء، وإيراد هذه الجزاءات في سياق أسلوب الشرط تأكيد لها، وأنه لابد من تحقق الجزاء عند تحقق الشرط، فبمجرد موت المرابط يبدأ الجزاء.

وبمعاودة التأمل في هذه الجزاءات يُلحظ أنها تلازم المرابط بمجرد موته، حيث يكون في مأمن من عذاب القبر، فضلا عما يلقاه من جزاء عظيم آخر كما بين الحديث، وهذا حث بالغ يجعل المتلقي يسرع إلى الرباط لينال هذا الأجر العظيم.

ويمكن الربط بين ما ورد في هذا الحديث الشريف وما ورد في القرآن الكريم، وإيجاد العلاقة بينهما بأن القرآن الكريم تحدَّث عن أجر الشهداء في مواطن عديدة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنهم في منزلة عالية مع النبيين والصديقين، وأن لهم أجرهم ونورهم، وغير ذلك، ولم يتحدث عن الرباط إلا في مقام الأمر به، وإرهاب الأعداء كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم**

١ – اختلف في المراد بالفتان فقيل: عَذَابَ الْقَبْرِ وَفِتْنَتَهُ، أَوِ الَّذِي يَفْتِنُ الْمَقْبُورَ بِالسُّؤَالِ فَيُعَذِّبُهُ، وَقِيلَ: أَرَادَ الدَّجَّالَ، وَقِيلَ: الشَّيْطَانَ فَإِنَّهُ يَفْتِنُ النَّاسَ بِخَدْعِهِ إِيَّاهُمْ وَبِتَزْيِينِ الْمَعَاصِي لَهُمْ. وَيُرْوَى الْفُتَّانُ جَمْعُ فَاتِنٍ ؛ أَيْ نَارٌ مُحْرِقَةٌ، أَوِ الزَّبَانِيَةُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ الْكُفَّارَ. ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٦/ ٢٤٥٨.

مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ الأنفال: ٦٠ ، وبيَّن أنه طريق للفلاح كما في قوله تعالى: " ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:٢٠٠)، دون ذكر الجزاء صراحة، فجاء الحديث هنا وذكر جزاء المرابط، وما له من عظيم الأجر عند الله تعالى.

*****

الحديث الثالث

خيْريَّة الجهاد والعزلة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –، أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً، أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ، يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ، أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ»[1].

ومعنى الحديث: أن من أفضل أحوال المعيشة التي يكون عليها الناس، وأفضل مكاسبهم، أن يكون الإنسان على أهبة الاستعداد دائما للغزو في سبيل الله ونصرة المظلوم، أو يكون له مجموعة قليلة من الغنم يقيم بها في أعلى الجبال أو في بطونها، ويعتزل الناس فلا يؤذيهم ويؤذونه، ويعبد الله حق عبادته حتى يأتيه الموت وهو على هذه الحالة.

ومقام الحديث الحث على مجاهدة أعداء الدين، وعلى مخالفة النفس والهوى.

ولما كان المقام كذلك اقتضت البلاغة النبوية أن يكون الطابع الخبري هو الغالب على أسلوب الحديث، وبجانب أسلوب الخبر اشتمل الحديث على فيض من الألوان البلاغية التي تتضمن أسرارا عالية ساعدت على إيضاح المعنى وصولا إلى الغرض. فبدأ الحديث بقولهﷺ:" **مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ**" أي: من أفضل مكاسبهم، ومن خير أحوال عيشهم، واستهلال الحديث بهذه الجملة تشويق لما بعدها، فلا ريب أن البحث عن أفضل العيش، وخير المكاسب هو بغية كل إنسان، مما يجعله في حالة اشتياق لمعرفة الطريق إلى ذلك، فإذا ألقي إليه الخبر بعد ذلك تلقفه بالقبول والامتثال، وهذا يتناسب مع مقام الحث، وافتتاحها بمن التبعيضية يدل على عدم انحصار الخيْريَّة في هذه الأشياء التي ستذكر في الحديث.

---

١ – صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب: فضل الجهاد والرباط، ٣/ ١٥٠٣، ح(١٨٨٩).

وبعد هذا التشويق يأتي قولهﷺ:" **رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً، أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ، يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ**"، قوله:" رجل ممسك عنان فرسه" كناية عن الاستعداد للغزو في كل وقت، وقد نقلت لنا الكناية صورة الرجل المتأهب للقتال وهو يمسك لجام فرسه يتحين الفرصة للانقضاض على العدو، ومعلوم أن من فوائد الكناية أنها تنقل المعنى مقرونا بدليله، مشفوعا ببرهانه، وهذا آكد في إثبات المعنى وتمكينه.

يقول الإمام عبد القاهر– رحمه الله– مبينا فضل الكناية:" أنَّ كلَّ عاقلٍ يَعْلمُ إذا رجعَ إلى نفسهِ، أَنَّ إثباتَ الصفةِ بإثباتِ دَليلِها، وإيجابَها بما هُو شاهِدٌ في وجودِها، آكدُ وأبلغُ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذَجاً غُفْلاً"[1] ، وفي هذا تأكيد للمعنى. كما أن التعبير باسم الفاعل" **مُمْسِكٌ**" يدل على ملازمة هذا الوصف له، مما يدل على دوام استعداده للقتال والنصرة في كل الأوقات.

وتتعانق الاستعارة في قوله:" **يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً، أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ**" مع الكناية السابقة في تأكيد الاستعداد للقتال والغزو، حيث استعار الطيران مرتين للخروج والإسراع للغزو، ونصرة المستغيث. وتكرار فعل الطيران يؤكد قوة الاستعداد والتأهب، وإيراده مضارعا مرة وماضيا مرة للدلالة على أن الاستعداد والتوثب هو دأبه في كل الأوقات، مما يدل على ملازمة الجهاد، ومداومة الاستعداد له. ساعده تكرار الجار" على" الذي يبرز ملازمة هذا الرجل لظهر فرسه، لا يفتر عن ذلك.

وأهم ما يلفت النظر في هذه الجملة ما اشتملت عليه من حركة، وكأن هذه الحركة قد جاءت لتؤكد أن هذا المتوثّب المتأهب للغزو كأنه يقف على الجمر، يتحيّن الفرصة لينقض على العدو، مما يبرز حرصه على نشر الدين

١ – دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت/ شاكر، ١/ ٧٢، طبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

وتحصيل الثواب؛ ولذلك استحق أن يكون خيرا من غيره، ولعل هذا هو سر تقديمه في الحديث.

وجملة" **يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ**" بعد قوله: "**رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**" تبين أن هذا المجاهد لا يقف مكانه منتظرا النداء، والاستغاثة لكي يتحرك، وإنما يتحرك هنا وهناك بحثا عن فرصة يقاتل فيها أعداء الدين، أو ينصر فيها مظلوما، وهذا مما يؤكد قوة استعداده وتشوقه لتحصيل الثواب، مما يجعله أهلا للخيْريَّة.

ولم تقتصر الخيْريَّة في الحديث على هذا المجاهد المستعد للقتال، فمن الناس من لا يطيقه ولا يستطيعه؛ فاقتضت الرحمة النبوية أن يكون هناك سبيل آخر لتحصيل الخيْريَّة، وقد تمثل ذلك في قولهﷺ:" **أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ**».

وهذا النوع هو الذي يكف أذاه عن الناس، فإن لم يستطع الدفاع عنهم ونصرتهم كما بين صدر الحديث، فلا يصلهم منه أذى، فهو يرعى غنيمات في رأس جبل أو بطنه ، ويعبد الله حق العبادة حتى يدركه الموت وهو على هذه الحالة.[١]

وقوله:" **أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ**" والتصغير" غنيمة" للتقليل، أي أنه" أقنع نفسه بعدد يسير من الغنم يعيش بها"[٢]، وهذا أدعى ألا تشغله عن الذكر والعبادة، كما أن فيه" وَصْفًا لِقَنَاعَةِ هَذَا الرَّجُلِ بِأَنَّهُ يَسْكُنُ فِي أَحْقَرِ مَكَانٍ، وَيَجْتَزِئُ بِأَدْنَى قُوتٍ وَيَعْتَزِلُ النَّاسُ شَرَّهُ، وَيَسْتَكْفِي شَرَّهُمْ عَنْ نَفْسِهِ، وَيَشْتَغِلُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ حَتَّى يَجِيئَهُ الْمَوْتُ"[٣]،والتعبير بالجار" في" دون" مع" في قوله" **أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ**" للدلالة

١ – اختلفت أقوال العلماء : هل العزلة أفضل أم مخالطة الناس لعدة آراء. ينظر: مرقاة المفاتيح: ٦/ ٢٤٦٠.

٢ – الكوكب الوهاج: ٢٠/ ٢٠٥. وشَعَفَةُ كلّ شيءٍ أعلاهُ، وجمعُها شِعَافٌ. يُرِيدُ بِهِ رَأْسَ جَبلٍ مِنَ الْجِبَالِ. وَمِنْهُ «قِيلَ لِأَعْلَى شَعْرِ الرَّأْسِ شَعَفَةٌ» ، النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/ ٤٨١، (شعف).

٣ – مرقاة المفاتيح: ٦/ ٢٤٦٠.

على انشغاله بها دون غيرها، فلا يتطلع إلى أعراض الناس، أو ينشغل بهم، وخص أعلى الجبل وبطنه" لتيسر الخلوة فيهما غالبا"[١]، وتنكير" شعفة، واد" لإفادة العموم، أي أن المهم أن تحدث الخلوة والانقطاع للعبادة في أي جبل من الجبال، أو أي واد من الأودية.

وقوله:" **يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ**" بيان لحال هذا المعتزل، فهو مع رعيه لغنيماته يحافظ على عبادته، وما فرضه الله عليه.

وإيرادها في سياق الجمل الحالية إشارة إلى ملازمة هذه الأحوال له، فهو يسعى على معاشه، وفي الوقت نفسه لا يتخلى عن العبادة والذكر، ومضارعية الأفعال" يقيم، يؤتي، يعبد" إشارة إلى تجددها منه تجددا يشي بالاستمرار، مما يدل على ملازمته الطاعة والعبادة.

وذكر العبادة بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من قبيل ذكر العام بعد الخاص؛ لإفادة العموم، أي أنه يعبد الله بأي نوع من العبادة حسبما يتيسر له، المهم أن ينشغل بمعاشه وعبادته مبتعدا عن أذي الناس، وقد أكد ذلك ختم الحديث بقولهﷺ:" **لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ**".

والتعبير عن الموت باليقين لتحقق وقوعه؛ و" لِيَكُونَ نَصْبَ عَيْنِهِ مَزِيدًا لِلتَّسَلِّي، فَإِنَّ فِي ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَّاتِ مَا يُعْرِضُهُ عَنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا وَيَشْغَلُهُ مِنْ مَلَاذِّهَا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، أَلَا تَرَى كَيْفَ سَلَّى اللهُ- تعالى- حَبِيبَهُ- صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ- حِينَ لَقِيَ مَا لَقِيَ مِنْ أَذَى الْكُفَّارِ بِقَوْلِهِ: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} [الحجر: ٩٧] إِلَى قَوْلِهِ: {حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٩]"[٢]، كما أن انتظاره الموت أدعى إلى إخلاصه في كسبه وعبادته مما يجعله أهلا للخيْريَّة المقصودة من الحديث.

******

١ – دليل الفالحين: ٧/ ١٠١.

٢ – مرقاة المفاتيح: ٦/ ٢٤٦٠.

المبحث الرابع
البلاغة النبوية في أحاديث الخيْريَّة
في الآداب والمعاملات

توطئة:

الدين الإسلامي دين متكامل، دين الوسطية والاعتدال، دين الشمول والعموم؛ فلم يهتم بجانب العبادات ويهمل جانب المعاملات، وإنما جعل العبادات والمعاملات وجهان لعملة واحدة، ورفع منزلة الأخلاق والمعاملات فكانت التطبيق العملي للعبادات، فمن لم تظهر آثار عبادته على معاملاته فلا خير في عبادته كما أخبر بذلك القرآن الكريم، والنبي الأمينﷺ في كثير من المواطن.

ونظرا لما للآداب والمعاملات من مكانة سامية في هذا الدين فقد حث النبيﷺ على الالتزام بالأخلاق الفاضلة في كثير من أحاديثه، وبين الطرق والوسائل التي تكون سبيلا لحسن الخلق كتعلم القرآن وتعليمه ، والإخبار بخيْريَّة من يلتزم بحسن الخلق، فتظهر آثار الإيمان الطيبة في تعاملاته مع الناس، وقد حفل البيان النبوي بكثير من الأحاديث التي ترفع من منزلة الأخلاق الفاضلة، ومن يتصف بها، وبيان خيْريَّته على غيره، نذكر منها:

الحديث الأول: خيْريَّة تعلُّم القرآن وتعليمه

عَنْ عُثْمَانَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[١]

ومعنى الحديث: أن أفضل المسلمين وأرفعهم ذكراً وأعلاهم عند الله درجة من تعلّم القرآن تلاوة وحفظاً وترتيلاً، أو تعلَّمه فقهاً وتفسيراً، فأصبح عالماً بمعانيه فقيهاً في أحكامه، وعلَّم غيره ما عنده من علوم القرآن مع عمله

١ – صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ح(٥٠٢٧)، ١٩٢/٦.

به، وإلّا كان القرآن حجة عليه، كما قال- صلى الله عليه وسلم-: " والقرآن حجة لك أو عليك "[١].

والغرض من الحديث الحث على تعلم القرآن وتعليمه ببيان فضل حامل القرآن ومعلمه، وأنه خير المؤمنين؛ لأنه أعظمهم نفعاً وإفادة.

وافتتاح الحديث بالخيْريَّة(**خيركم**) زيادة في الحث، وتعجيل بالبشارة للمخاطبين، والمخاطب هنا: إما معشر القراء أو الأمة جميعها، أي: أفضلكم[٢].

وقد كثرت أقوال الشراح حول المراد بالخيْريَّة هنا، هل هي خيْريَّة مطلقة أم مقيدة[٣]؟ كما كثرت أقوالهم حول التوفيق بين هذا الحديث وحديث مسلم(**عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ أَبِي الْخَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**)[٤]، فذكر النووي:(أَنَّهُ يمكن الجَمعَ بَيْنَهَا بِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ ذَلِكَ اخْتِلَافُ جَوَابٍ جَرَى عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ فَإِنَّهُ قَدْ يُقَالُ خَيْرُ الْأَشْيَاءِ كَذَا وَلَا يُرَادُ بِهِ خَيْرُ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ بَلْ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ وَاسْتَشْهَدَ فى ذلك بأخبار منها عن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ:" حَجَّةٌ لِمَنْ لَمْ يَحُجَّ أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِينَ غَزْوَةً، وَغَزْوَةٌ لِمَنْ حج أفضل من أربعين حجة، الوجه الثَّانِي: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ كَذَا أَوْ مِنْ خَيْرِهَا أَو مِن خَيْرِكُمْ مَنْ فَعَلَ كذَا فَحُذِفَتْ مِن وهي مُرَادَةٌ كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ أَعْقَلُ النَّاس

١ - روِي عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ ، أَوْ عَلَيْكَ". الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، تأليف/ صهيب عبد الجبار (٨/ ٣١٨).

٢ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح:١٤٥٢/٤.

٣ - ينظر: فتح الباري لابن حجر ٧٤/٩، ومنحة الباري بشرح صحيح البخاري ٣٠٢/٨.

٤ - صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، ح(٤٠)،٦٥/١.

وَأَفْضَلُهُمْ وَيُرَادُ أَنَّهُ مِنْ أَعْقَلِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ)[١]، فالنبيﷺ يراعي أحوال المخاطبين(والأولى أن يقال: إن اختلاف جوابه – صلى الله عليه وسلم – مع اتحاد السؤال أو تشابه الأسئلة إنما كان مراعاة لمقتضى الحال، فقد يراعي حال السائل وما هو أنفع له وأخص به فإن كان السائل ذا نجدة فالجهاد في حقه أفضل، وإن كان له والدان يعتمدان عليه لو خرج للجهاد ضاعا فالبر في حقه أفضل، ومن ذلك ما ورد أن رجلا سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الجهاد، فقال: ألك والدان؟ قال: نعم. فقال: ففيهما فجاهد، وإن كان السائل امرأة تسأل عن الجهاد لم يكن بالنسبة لها أفضل الأعمال، ففي البخاري عن عائشة "قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، قال: لكن أفضل الجهاد حج مبرور". وقد يراعي حال المخاطبين والسامعين فيُعلم كل قوم بما بهم من حاجة إليه، أو بما لم يكملوه بعد من دعائم الإسلام فقد ورد عن ابن عباس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "**حجة لمن لم يحج أفضل من أربعين غزوة، وغزوة لمن حج أفضل من أربعين حجة**" وقد يراعي ما هو أليق بالزمان، كما لو نزل العدو بأرض المسلمين، وفي وقت الزحف الملجيء والنفير العام، فإن الجهاد حينئذ يجب على الجميع، وإن كان كذلك فالجهاد أولى بالتحريض والتقديم على ما سواه، وكما لو نزلت بالمسلمين ضائقة وفقر وجدب وشدة، فإن إطعام الطعام حينئذ يكون أولى بالتقديم، وبكونه أفضل الأعمال، فكأن الأفضلية أمر نسبي، فما هو أفضل لي قد يكون غيره أفضل لغيري، بل قد يكون الشيء خير الأشياء لي في وقت، وغيره خيرا منه لي في وقت آخر، ومرجع هذا الجواب إلى تقييد كل حديث بالحال والمقام)[٢]، وعلي هذا يكون خيْريَّة تعلم القرآن وتعليمه هي المناسبة للحال في هذا الموقف.

١ – شرح النووي على مسلم:٢/٧٧، ٧٨.
٢ – فتح المنعم شرح صحيح مسلم:١/٢٧٠.

وقدم المسند إليه "خيركم" لتعجيل المسرة في نفس السامع، وتهيئته لقبول ما سيلقى عليه، إذ كلما ابتدأ الكلام بما يسر النفس، ويشرح الصدر كان أكثر وقعاً وتمكناً في النفس، فإذا علم الإنسان أن من تعلم القرآن وعلّمه أفضل من غيره، كان ذلك داعيه إلى الإقبال عليه متعلماً ومعلماً؛ لينال هذا الشرف وتلك الأفضلية.

"والخيْريَّة حاصلة من جهة حصول التعليم بعد التعلم، والذي يعلّم غيره يحصل له النفع المتعدي أثره، بخلاف من يعمل فقط. بل من أشرف العمل تعليم الغير، فمعلم غيره يستلزم أن يكون تعلمه... وهو من جملة ما عنى سبحانه وتعالى بقوله " **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**" (فصلت:٣٣).

والدعاء إلى الله يقع بأمور شتى، من جملتها "تعليم القرآن وهو أشرف الجميع.. ومثل هذا الشخص يعد كاملاً لنفسه مكملاً لغيره، فهو أفضل المؤمنين مطلقاً... والفرد الأكمل من هذا الجنس هو النبيﷺ، ثم الأشبه فالأشبه، فخير الناس باعتبار التعلم والتعليم من تعلم القرآن وعلمه"(١).

وهذا الحديث وإن كان إخباراً عمن يقوم بتعلم القرآن الكريم وتعليمه بأنه خير هذه الأمة وأفضلها على الإطلاق، فإنه يتضمن معنى الأمر، وكأنه قيل: تعلموا القرآن وعلموه، إلا أن العبارة النبوية أبلغ من التصريح بالأمر، لما تصوره في ذهن المخاطب من أن الذي يقوم بتعلم القرآن وتعليمه يصير من خير هذه الأمة وأفضلها منزلة، ومن ثم يقدم على تلك الخيْريَّة، وهذه الأفضلية، ليكون محبوباً عند الله وعند رسوله، فقام الخبر مقام الطلب لإظهار الحرص على وقوعه، وحمل المخاطب عليه أبلغ حمل بألطف وجه.

ولا يخفى ما في صيغة التفضيل "خير" المضافة إلى عموم المخاطبين "كم" من إشارة إلى عظم تلك الخيْريَّة، وأنها خيْريَّة مطلقة.

١ - فتح الباري:٧٦/٩، وينظر: عون المعبود: ٤/ ٢٢٩.

وبين قوله "تعلَّم وعلَّم" جناس ناقص أكسب الأسلوب رونقاً وبهاءً وحسناً، وعمل على ميل المخاطب إلى الإصغاء إليه، وشوقه إلى معرفة أحد معنيي اللفظ، لأن اللفظ المشترك إذا ورد دالاً على معنى، ثم ورد والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق إليه، فالكلمتان "تعلم وعلم" اتفقتا في جميع الأحرف إلا أن الأولى زادت حرفاً في أولها، واختلفتا في المعنى، فمن قرأ القرآن، وتعلم حروفه وأحكامه، وعمل بكل ما فيه، فقد أفلح ونجا من عذاب الله، ويزاد له في الفضل والرفعة إذا تعدى هذا النفع إلى غيره، فيعلِّم غيره القرآن، وطريقة أدائه، وتدبر ما فيه، والعمل بأحكامه، وذلك لأن فيه صلاح الدنيا والآخرة، واختلاف المعنيين مع اتحاد اللفظين يعمل على شد انتباه السامع وشوقه إلى بيان معنى كل منهما، وهذا يجعل المعنى يتمكن في ذهنه أيما تمكن، وتحقيق هذه الفوائد يجعل لأسلوب الجناس مدخلاً في بلاغة الأساليب، إذ إن هذه الفوائد مما تتعلق بها مقاصد البلغاء والمتكلمين وأهدافهم، وليس القصد إليه قصداً إلى الزينة والزخرفة فحسب، بل إن التزيين به مما يكسب الكلام جمالاً وبهاءً وحسناً، كما أن بين اللفظتين(تعلَّم وعلَّم) طباق يفيد تأكيد خيْريَّة من يجمع بين تعلُّم القرآن وتعليمه.

والحديث فيه بيان لفضل تعلُّم القرآن الكريم، وأن تعلُّمه أفضل من تعلم غيره، وفيه شرف وعلو منزلة من علّمه غيرَه.

والتعبير بالموصول(مَن) للتوصل بصلته إلى سبب خيْريَّته. وإيثار التعبير بصيغة(تعلّم) المشددة للدلالة على التكرار وكذلك القوة والهمة في تعلم القرآن، مما يشعر بالإحاطة بأكبر قدر منه، وبذل الوسع والطاقة في تعلمه، كما قال تعالى ليحيى عليه السلام: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾ (مريم: ١٢)، ومثلها تشديد صيغة(علّمه).

ومما يزيد الحث على تعلم القرآن وتعليمه عدم تقييده بمعلم أو متعلم معين، وإنما أطلق التعبير ليدل على شمول التعلم بأي طريقة كانت وشمول

المتعلمين، وفي هذا توسيع للدائرة ليشمل التعلم والتعليم الجميع، مما يدل على أهمية القرآن ودوره في بناء مجتمع فاضل خيِّر.

وامتدادا لحبل العموم والشمول يأتي الطباق بين التعلم والتعليم ليؤكد الشمول والدعوة إلى أن يكون الإنسان إما متعلما للقرآن أو معلما له.

وبعد: فالحديث على الرغم من إيجازه إلا أنه اشتمل على بعض الألوان البلاغية التي تتناسب مع مقام الحث على تعلم القرآن وتعليمه، منها افتتاحه بالخيْريَّة، والتعبير بالموصول(مَن) وتشديد الصيغة(تعلّم القرآن وعلّمه)، والطباق بينهما وما أفاده من شمول، كل ذلك تواكب مع مقام الحث، ولاءمه أيما ملاءمة.

ويمكن الربط بين ما جاء في هذا الحديث وما جاء في القرآن الكريم، حيث تحدث المولى- سبحانه- عن تكفُّله بحفظ القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، ولم يذكر لنا طريقة الحفظ، فجاء هذا الحديث يبين بعض طرق حفظ الله- تعالى- للقرآن الكريم من خلال الحث على تعليمه وتعلُّمه. والله أعلم.

الحديث الثاني
خيْريَّة حسن الخلق

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا»(١).

ومعنى الحديث: أن خيار المسلمين من حسنت أخلاقهم وكرمت صفاتهم، أما من ساءت منهم الأخلاق وقبحت الصفات فأولئك الأشرار، وإن كانوا يصلون، ويصومون ويحجون، حيث إن الأخلاق الحسنة هي ثمرة العبادات.

ومقام الحديث الحث على حسن الخلق لما له من آثار طيبة على صاحبه في الدنيا والآخرة، حيث إن" مما يثمره حسن الخلق في هذه الحياة تيسر الأمور لصاحبه، وموافاة الرغائب، وحب الخلق له، وثناؤهم عليه، ومعونتهم له. والابتعاد عن أذاه، وقلة مشاكله في الحياة. واطمئنان نفسه، وطيب عيشه، ورضاء ربه، أما الثمرة في الحياة الآخرة فجنة نعيم، وقرب من رب العالمين"(٢).

ولعل أول ما يلفت النظر في الحديث تقدمة راوي الحديث سيدنا عبد الله بن عمرو له بهذا الخبر:" **لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا**" قبل ذكر الحديث، وهذا المعنى متضمَّن في قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ القلم: ٤ ، وهذه تهيئة بليغة قبل ذكر نص الحديث؛ فوصفه للنبيﷺ بذلك تأكيد للمعنى المراد من الحديث؛ حيث اشتمل هذا

---

١ – صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: صفة النبيﷺ، ٤/ ١٨٩. ومعنى (فاحشا) ناطقا بالفحش. (متفحشا) متكلفا في الفحش يعني أنه لم يكن الفحش فيه خلقا أصليا ولا كسبيا، والفحش في الأصل الزيادة بالخروج عن الحد المألوف والمراد به هنا سوء الخلق وبذاءة اللسان ونحو ذلك. وَحُسْنُ الْخُلُقِ: اخْتِيَارُ الْفَضَائِلِ وَتَرْكُ الرَّذَائِل. ينظر: فتح الباري لابن حجر:٦/ ٥٧٥.

٢ – الأدب النبوي:١٢٦.

الوصف على الجانب الفعلي الذي لمسوه من النبيﷺ في أخلاقه الطيبة، وأنه لم يعرف الفحش لا طبعا ولا تكلفا قبل ذكر الجانب القولي الذي جاء به الحديث الشريف، وهذا تأكيد للمعنى المراد من الحديث، فبيّن الحديث حال النبيﷺ وصفاته الفعلية والقولية؛ لنقتدي به قولا وعملا.

ولم يقتصر كلام الراوي على هذا الخبر المؤكِّد لما سيرد في الحديث، وإنما أتبعه بقوله:" **وَكَانَ يَقُولُ**" ومضارعية القول هنا دلالة على تجدد هذا القول من النبيﷺ وأنه كثيرا ما كان يردده في المناسبات المختلفة؛ مما يدل على أهمية حسن الخلق؛ ولذلك يؤكد عليه المصطفىﷺ في مقامات كثيرة.

وبعد هذه التأكيدات من الراوي يأتي لفظ الحديث مؤكَّدا كذلك" **إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا**" وهي جملة مؤكدة بـ(إن) لإفادة تأكيد مدلولها : وهو الإخبار بخيْريَّة المتصفين بحسن الخلق، وأنهم من أفضل الناس وأكرمهم عند الله تعالى.

وهذه الجملة آكد وأبلغ من أن يقال مثلا(تفضلون وتُخيرون بحسن خلقكم) لأنها أدل على إثبات الخيْريَّة للمتصفين بحسن الخلق؛ لأن الجملة الفعلية يؤتى بها" عند قصد مجرد الإخبار، فإذا أريد التأكيد أتي بالجملة الاسمية"[١].

هذا فضلا عما تفيده الجملة الاسمية من استمرارية الخيْريَّة ما دام الاتصاف بحسن الخلق قائما وهذا مما يتناسب مع مقام الحث على التزام الأخلاق الطيبة.

ومجيء الحديث على هذا الترتيب البديع بتقديم الخيْريَّة مع أن موضعها التأخير(خبر إن) تأكيد للحث على حسن الخلق أيضا؛ حيث يتضمن هذا التقديم تشويقا لما بعده، ولا شك أن الكلام حين يأتي بعد تشويق إليه يكون أوقع في النفس وآكد.

١ – حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص: ١/ ٢٢٠،ط: مطبعة السعادة، مصر،ط٢، ١٣٤٢.

وتأكيد النبيﷺ على خيْريَّة حسن الخلق، ورفعة منزلة صاحبه؛ لأن حسن الخلق هو أساس كل خير، وأصل كل حسن، فمن محاسن الأخلاق الفاضلة" الصدق، والشهامة؛ والنجدة وعزة النفس والتواضع؛ والتثبت، وعلو الهمة، والعفو، والبشر، والرحمة والحكمة، والشجاعة، والوقار ، والصيانة، والدماثة ، والدعة، والصبر، والورع، والحياء، والسخاء، والنزاهة ، وحفظ السر، والقناعة والعفة، والإيثار"[١]، فالأخلاق الحسنة جماع كل خير، والفضائل كلها فرع لها؛ مما جعل النبيﷺ يؤكد عليها هذا التأكيد القوي.

وهذا التأكيد يدل على الأهمية البالغة لحسن الخلق مما جعل النبيﷺ يربط بين خيْريَّة المسلم عند الله وبين حسن الخلق. ويجعلها خبرا عنه مقدما عليه.

ويتشابه مع لفظ هذا الحديث حديث آخر للنبيﷺ في الخيْريَّة أيضا وهو عن خيْريَّة حسن قضاء الدَّيْن يقول فيه: **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ لِرَجُلٍ عَلَى النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – سِنٌّ مِنَ الإِبِلِ، فَجَاءَهُ يَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: «أَعْطُوهُ»، فَطَلَبُوا سِنَّهُ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ إِلَّا سِنًّا فَوْقَهَا، فَقَالَ: «أَعْطُوهُ»، فَقَالَ: أَوْفَيْتَنِي أَوْفَى اللَّهُ بِكَ، قَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم –: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»**[٢]، وسياق الحديثين متقارب وهذا من شأنه أن يحدو المتلقي إلى المقارنة بينهما ليتبين ملاءمة كل حديث لمقامه، وعند المقارنة يتبين أن الحديثين في مقام الحث والترغيب، وقُدِّم لكل منهما بدليل عملي قبل إظهار الجانب القولي تأكيدا، وبينهما عموم وخصوص؛ فحسن قضاء الدين يدخل ضمن حسن الخلق، وهو الدليل عليه، بل من أقوى الأدلة عليه.

١ – الأدب النبوي: ١٢٧.

٢ – صحيح البخاري: كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب: حسن القضاء، ٣/ ١١٧.

ويتجلى الاختلاف في زيادة مِنْ في حديث حسن الخلق" **إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ**" وهي للتبعيض؛ مما يشير إلى أن حسن الخلق ليس هو المقياس الأوحد للخيْريَّة، فيمكن أن تثبت الخيْريَّة بأمور أخرى دلت عليها باقي أحاديث الخيْريَّة، وفي هذا توسيع لدائرة الخيْريَّة، أما الحديث عن الدَّين فقد جاءت الخيْريَّة فيه عامة" **إِنَّ خِيَارَكُمْ** " أي خيركم على الإطلاق، ولعل ذلك لأن المعاملات هي التي تبرز الجانب الحقيقي لحسن الخلق، وتحتاج إلى مجاهدة النفس فكانت الخيْريَّة فيها عامة تزيد على ما عداها. ومصداق ذلك ما حكي عن" عمر – رضي الله عنه– أنه قال لرجل زكى رجلاً عنده: أنت جاره؟، قال: لا، قال: صحبته في السفر الذي تظهر فيه جواهر الرجال؟، قال: لا، قال: عاملته بالدينار والدرهم؟، قال: لا، قال: لست تعرفه"[١]. ولهذا فإن" معرفة الدِّين الحقيقي لا يكون إلا بالمواقف والتعامل، ومن أحرج المواقف التي تظهر الرجال المعاملة بالدينار والدرهم؛ لأن النفوس مجبولة على حب المال فإذا تغلب الدِّين ومراقبة الله على النفس في هذه القضية دل هذا على وجود الدِّين"[٢].

*****

١ – الملخص الفقهي: صالح بن فوزان الفوزان، ٢/ ٦٣٥، دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٢ – الزواج في ظل الإسلام لعبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف،صـ٣٥، الدار السلفية للنشر، الكويت، ط٣، ١٩٨٨م.

الحديث الثالث

خيْريَّة الصفح وعدم الهجر

من حق المسلم على أخيه المسلم إذا تلاقيا أن يسلم كل واحد منهما على صاحبه، فإذا تركا ذَلِكَ عن عمد ومخاصمة فقد دخلا فيما حرم الله، واستحقا العقوبة إن لم يعف الله- تعالى- عنهما، وأفضلهما الذي يبدأ أخاه بالسلام، وضّح ذلك الحديث الشريف، **عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: " لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ "**(١).

ومقام الحديث حث على المحبة والألفة بين المسلمين، وعدم ظهور أمارات الشقاق والخلاف بينهم، وتقاسم سياقَ الحديث الترهيبُ والترغيبُ، فيبدأ الحديث بالترهيب من الهجران وذلك قولهﷺ:" **لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ**"، ونفي الحل يستلزم التحريم، فهجر الرجل لأخيه يدخل في حيّز الحرمة، وهذا ترهيب من الهجر فوق ثلاث.

والتعبير **(لاَ يَحِلُّ)** أبلغ من(لا يهجر) لأن المعبَّر به يجعل الكلام متعلقا بالحلال والحرام وهو أبلغ في النهي، وأقوى في الترهيب.

وتقييد الشراح عدم الحل بالمسلم وإن كان الحكم غير مقصور عليه، وإنما الأمر للمسلم ولغيره كما ذكر النووي لأن المسلم هو" الذي يقبل شرع الله وينتفع به"(٢)، وخالفه ابن حجر حيث ذكر أن الحكم يختص بالمؤمنين مستدلا بقوله" **أَخَاهُ**"(٣)، وقيل: أن التقييد بالأخوة للدلالة على أن للمسلم أن يهجر الكافر من غير تقييد(٤) ، وأرى أن التقييد بالمسلم والأخوة لزيادة الترهيب،

١ - صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب: الهجرة، ح(٦٠٧٧)، ٨/٢١.
٢ - شرح النووي على مسلم: ١٦/ ١١٨.
٣ - ينظر: فتح الباري لابن حجر: ١٠/ ٤٩٦.
٤ - ينظر: السابق- الصفحة.

فالمعنى أن الهجر لا يليق بمن يتصف بالإسلام ، فكيف إذا كان المهجور أخا، فالحرمة حينئذ أشد، كما أن في التعبير بالأخوة" إشعارا بالعلّية"(١).

وإيثار التعبير بوصف الرجولة(لرجل) إشعار بأن الهجر والخصام يتنافى مع الوصف بالرجولة؛ تناغيا مع مقام التنفير من الهجر.

والتعبير بالأخوة وارد على هدى النسق القرآني في قوله- تعالى- بعد ذكر القصاص:﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ (البقرة: ، ١٧٨)، حتى لا ينسى المتخاصمون أو المتقاتلون أنهم إخوة مهما حدث بينهم، وأن عليهم أن يستشعروا ما تستوجبه عليهم هذه الأخوة من الصفح والعفو، وهذا أدعى للتقارب وأبلغ في الحث على العفو والصفح.

والتخصيص بالثلاث في قوله" **فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ**"؛ " لِأَنَّ الْآدَمِيَّ مَجْبُولٌ عَلَى الْغَضَبِ وَسُوءِ الْخُلُقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَعُفِيَ عَنِ الْهِجْرَةِ فِي الثَّلَاثَةِ لِيَذْهَبَ ذَلِكَ الْعَارِضُ"(٢)، ففيه تلطف بالإنسان حيث أنه" فَي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ يَسْكُنُ غَضَبُهُ، وَفِي الثَّانِي يُرَاجِعُ نَفْسَهُ، وَفِي الثَّالِثِ يَعْتَذِرُ، وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ قَطْعًا لِحُقُوقِ الْأُخُوَّة"(٣)، فكان التخصيص بالثلاث متماهيا مع طبيعة النفس البشرية التي لا يجهل النبيﷺ عادتها وما جبلت عليه، فيأتيها بما يتوافق مع هذه الطبيعة ليكون ذلك أدعى للحث، وأقوى في الامتثال للمأمور به وهو النهي عن عدم الهجر، إذ لو حرَّم ذلك من أول لحظة لأدى ذلك إلى أنه ربما تنفر النفوس منه ولا تمتثل له؛ لعدم قدرتها على مقاومة طبيعتها؛ فتشذ عن التنفيذ، فيأتيها النبيﷺ بما يتواءم مع طبيعتها.

وبعد بيان الحكم في الهجر قولا تأتي الجملة التالية" **يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا**" لتبين كيفية الهجران، وترسم صورة منفرة للمتخاصمين حين يلتقيان فيعرض كل منهما عن الآخر، ويتولى بعيدا عنه، وهو ما يزيد في

١ – إرشاد الساري: ٩/ ٥٣.
٢ – شرح النووي على مسلم: ٦/ ١١٧.
٣ – سبل السلام للصنعاني: ٢/ ٦٣٦.

التنفير من الهجران وما يشتمل عليه من إعراض يتنافى مع الطبيعة البشرية السوية، وبالغ في التنفير تكرار الفعل" **يُعْرِض**" واسم الإشارة" **هَذَا**" لتأكيد شدة الإعراض، وبيان فظاعته مبالغة في التنفير منه، كذلك فإن فيه إشارة إلى أن الإعراض كان من كلا الطرفين، كما أن تعريف المسند إليه بالإشارة" **هَذَا**" يتضمن تحقيرا لهذا المتخاصم، وازدراءً له.

وهنا لفتة بلاغية جميلة في قولهﷺ" **يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا**" دون أن يقال: يلتقيان فيعرضان، وكأنها إشارة إلى أن الهجران والتخاصم قد فرَّقهما، فصار كل منهما شخصا منفصلا بذاته لا يمكن اجتماعهما طالما كانا على هذه الحالة، على عكس ما نجده في الحديث الآخر الذي يذكر فيه النبيﷺ خبر السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم: رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، وكأنه يشير إلى أن الحب قد صهر المتحابَّيْن في الله حتى صارا ذاتا واحدة، وقلبا واحدا، وهي لفتة تختصر أثر الحب في أسمى معانيه، فلاءم كل من التعبيرين مقامه أيما ملاءمة.

والتعبير بالمضارع" **يَلْتَقِيَانِ– يُعْرِض**" يشير إلى تجدد هذا الفعل منهما، وتمسكهما بالهجران، وإصرارهما عليه؛ مما يبالغ في ذمهما وتصويرهما في هذه الحالة الذميمة المتكررة، وهذا أقوى في الترهيب والذم.

جدير بالذكر أن هناك رواية أخرى للحديث أوردها البخاري عُبِّر فيها بالصد" يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا" والمعنى واحد؛ فالصُّد بضم الصاد هو أيضا الجانب والناحية[١]، فهو اختلاف لفظي.

وبعد هذا الترهيب يختم الحديث بالترغيب" **وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ**"[٢] أي: أفضلهما وأكثرهما ثوابا، وهذا حث على العفو والصفح وإزالة حالة الهجران.

---

١ – ينظر: لسان العرب(صدد)، ٣/ ٢٤٦.

٢ – اختلف شراح الحديث، هل تزول الهجرة بمجرد السلام ورده، أم لابد من العودة إلى حالتهما الأولى التي كانا عليها قبل الهجر؟ والصحيح أنه يزول بمجرد السلام ورده. ينظر: فتح الباري لابن حجر: ١٠/ ٤٩٦.

وخيْريَّة المبتدِأ لأنه" فعل حسنة وتسبب في فعل حسنة وهي الجواب مع ما دل عليه الابتداء من حسن طوية المبتدئ، وترك ما يكرهه الشارع من الهجر والجفاء"[١]، كما أن الباديء يدل فعله " عَلَى أَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى التَّوَاضُعِ وَأَنْسَبُ إِلَى الصَّفَاءِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ مُعْتَرِفٌ بِالتَّقْصِيرِ، وَلِلْإِيمَاءِ إِلَى حُسْنِ الْعَهْدِ وَحِفْظِ الْمَوَدَّةِ الْقَدِيمَةِ، أَوْ كَأَنَّهُ بَادِئٌ فِي الْمَحَبَّةِ وَالصُّحْبَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ"[٢]،" فله ثواب السبق، وكبح جماح النفس"[٣]، ولذلك عرّف بالموصولية للإشارة إلى وجه استحقاقه وصف الخيْريَّة، وهو بدايته لأخيه بالسلام، وفي هذا حث لكلا المتخاصمين على مبادرة الآخر بالسلام حتى يستحق وصف الخيْريَّة، وهذا متناغم مع مقام الحث الذي جاء عليه الحديث.

*****

١ – إرشاد الساري شرح صحيح البخاري: ٥٤/٩.
٢ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٨/ ٣١٤٧.
٣ – الأدب النبوي: ١٤٥.

الحديث الرابع
خيْريَّة خلق الحياء

عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا السَّوَّارِ، يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ، يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّهُ قَالَ: «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»[١]

ومعنى الحديث: أن خلق الحياء هو أصل كل خير، ومنبت كل فضيلة فـ" من استحى من الناس أن يروه يأتي الفجور ويرتكب المحارم، فذلك داعية له إلى أن يكون أشد حياء من ربه وخالقه -عَزَّ وَجَلَّ-، ومن استحى ربه فإن حياءه زاجر له عن تضييع فرائضه وركوب معاصيه؛ لأن كل ذي فطرة يعلم أن الله النافع له والضار والرزاق والمحيي والمميت، وإذا علم ذَلِكَ فينبغي له أن يستحي منه تعالى"[٢].

ومقام الحديث يتضمن حثا على الالتزام بخلق الحياء، وذلك بإخبار النبيﷺ أنه لا يكون من ورائه إلا الخير.

والمراد بالحياء في الحديث ما كان موافقا للشرع، داعيا إلى الفضائل، أما الحياء الذي يؤدي إلى ترك مواجهة الباطل، وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإخلال بالحقوق والواجبات، فلا يعد ذلك من الحياء، وإنما هو عجز ومهانة، وتسميته حياء من باب المشابهة فقط[٣]، فالحياء الممدوح هو الموافق لما جاء به الشرع الحنيف.

وقد نُظم الحديث في جملة واحدة استولى عليها أسلوب القصر" **الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**" لتأكيد خيْريَّة الحياء، وأنه مصدر كل خير؛ لأنه يحول بين

---

١ - صحيح البخاري : كتاب الأدب، باب: الأدب، ح(٦١١٧)، ٨/ ٢٩،وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب: شعب الإيمان، ح(٣٧)، ١/٦٤. وحَقِيقَةُ الْحَيَاءِ: خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبِيحِ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الْحَقِّ وَنَحْوِ هَذَا . شرح النووي على مسلم: ٢/٦.

٢ - التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ٢٨/ ٤٩٥.

٣ - ينظر: فتح الباري: ١٠/ ٥٢٢، وعمدة القاري: ١/ ١٢٩، بتصرف.

صاحبه وبين ارتكاب المعاصي، ويقف حائلا بينه وبينها،" لأن من استحيا من الناس أن يروه يأتي بقبيح دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه أشد فلا يضيع فريضة ولا يرتكب خطيئة"[١].

واستعمل القصر عن طريق النفي والاستثناء- أقوى طرق القصر- مبالغة في تأكيد أهمية الحياء وخيْريَّته، وهذا حث بالغ على الالتزام بهذا الخلق الطيب.

والتعبير بالمضارع المنفي" **لَا يَأْتِي**" إشارة إلى تجدد هذا الأمر، وأن الحياء لا يأتي في وقت من الأوقات، أو زمن من الأزمنة إلا بخير، وهذا مما يزيد في الحث على الالتزام به، ساعده تنكير" **خير**" لإفادة التعظيم والتكثير، أي أنه يأتي بخير عظيم كثير، وهذا باعث قوي على الالتزام به.

وبعد فالحديث على إيجازه، وقلة ألفاظه، بيَّن أهمية الحياء، ومكانته العظيمة، وأنه منبع كل خير، بأبلغ أسلوب، مستعملا القصر- وهو من أقوى طرق التوكيد- الذي استغرق معظم الحديث؛ فكان الحديث بألفاظه وأسلوبه غاية في الحث والترغيب في الاتصاف بخلق الحياء؛ لتحصيل شتى صنوف الخير.

جدير بالذكر أن هناك حديثا آخر في خيْريَّة الحياء أخرجه الإمام مسلم **عن عمران بن حصين أيضا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»**[٢]، والحديثان بينهما أشد التقارب في المعنى، واللفظ، والإيجاز والتأكيد هما السمة الغالبة عليهما، إلا أن درجة التوكيد اختلفت فيهما؛ فالحديث الأول كان التأكيد فيه بالقصر وهو أقوى من التأكيد المعنوي الذي اشتمل عليه الحديث الثاني، يقول أستاذنا الدكتور/ صباح دراز:" ومن الواضح أننا لو رتَّبنا أساليب التوكيد وأدواته ترتيبا تصاعديا حسب قوة التأكيد

١ - فيض القدير: ٣/ ٤٢٧.
٢ - صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب: شعب الإيمان، ح(٣٧)، ١/٦٤.

لكان القصر قمة وغاية؛ وذلك أنه توكيد فوق توكيد؛ لأنه يشتمل على جملتين فهو تركيز شديد في الأسلوب"[١]، فتنوعت طرق التوكيد في الحديثين، لكن في كلتا الحالتين لم يتخل النبيﷺ عن تأكيد خيْريَّة الحياء؛ مما يدل على أهمية هذا الخلق العظيم، وضرورة التمسك به، ولذلك كان يكرره في مناسبات مختلفة بأساليب متقاربة، وهو ما يتوافق مع مقام الحث عليه.

*****

١ – أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د/ صباح دراز، صـ٩، مطبعة الأمانة، ط١.

الحديث الخامس

خيْريَّة إغناء الورثة

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – يَعُودُنِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا، قَالَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: «لاَ»، قُلْتُ: فَالشَّطْرُ، قَالَ: «لاَ»، قُلْتُ: الثُّلُثُ، قَالَ: «فَالثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ، فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ»[1]، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا ابْنَةٌ.

ومقام الحديث الحث على إغناء الورثة، والإنفاق عليهم، والنهي عن الوصية بأكثر من الثلث؛ حتي لا يلحق بهم ضرر.

وسياق الحديث حوار حدث بين النبيﷺ وبين سيدنا سعد بن أبي وقاصرضي الله عنه لما كان مريضا وذهب النبيﷺ يعوده، فيسأله سيدنا سعد عن إمكانية أن يوصي بماله كله في وجوه الخير، ولا يبقي منه شيئا لورثته، فينهاه النبيﷺ عن ذلك، فيستفهم عن النصف، فينهاه النبي أيضا، فينزل إلى الثلث، فيقره النبيﷺ مستكثرا إياه أيضا، موجها له إلى أن تحصيل الثواب والخير لا يقتصر على الوصية، فهناك وجوه أخرى لتحصيل الخيْريَّة منها الإنفاق على الورثة وإغنائهم.

ومضمون الحوار هنا ليس خاصا بسيدنا سعد بن أبي وقاص، ولكنه يحمل تعليما للمسلمين جميعا أن يحرصوا على إغناء ورثتهم، والإنفاق عليهم

١ – صحيح البخاري: كتاب الوصايا، باب: أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، ح(٢٧٤٢)، ٣/٤. وصحيح مسلم: كتاب الوصية، باب: الوصية بالثلث، ح(١٦٢٨)، ٣/ ١٢٥٠.

محتسبين الأجر والثواب من الله- تعالى- فإن ذلك من أفضل وجوه الخير وأعظمها عند الله- سبحانه-.

والحوار هنا قائم على الاستفهام الموجَّه من سيدنا سعد إلى النبيﷺ، وهو استفهام حقيقي؛ لأنهﷺ يستفهم عن أمور يجهلها حقيقة، ويطلب من النبيﷺ الإجابة عنها.

ويبدأ الحديث بالاستفهام:" **يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟** "[1]، وسبق الاستفهام بالنداء" **يَا رَسُولَ اللَّهِ**" مستعملا أداة نداء البعيد" يا"؛ للإشارة إلى رفعة المنادَىﷺ وعظم منزلته، وتآزر معه في التكريم والتشريف الوصف بالرسالة وما لها من خصوصية زائدة على الوصف بالنبوة، وأيضا إضافتها إلى لفظ الجلالة، ولا ريب أن في هذا تعليما لعامة الناس حين يطلبوا أمرا يجهلونه أن يبدؤا مَن يطلبون منه معرفة هذا الأمر بما يستحقه من التكريم والتشريف؛ فهو سبيل لنشر المحبة والألفة بين السائل والمسئول، هذا فضلا عما في ذلك من تهيئة المسئول قبل إلقاء السؤال إليه، واعتراف بمكانته ومنزلته، وهذا كان دأب الصحابة- رضوان الله عليهم- في استفهاماتهم مع النبيﷺ.

وبعد هذه التهيئة يأتي السؤال:" **أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟** "، وهو استفهام محذوف الأداة؛ تناسبا مع المقام؛ حيث المقام مقام عيادة مريض، والمريض نفسه هو الذي يسأل، فلا شك أنه في حال لا تسمح له بالإطناب؛ مما دعاه إلى أن يحذف أداة الاستفهام، وجاءت إجابة النبيﷺ على النسق نفسه مشتملة على الإيجاز بالحذف أيضا" **لاَ**" والتقدير: لا توص بمالك كله؛ لأنه معلوم من السؤال قبله؛ تناسبا مع حال السائل، فيكرر عليه سيدنا سعد سؤالا قريبا منه بطريقة أوجز من الأولى:" **فَالشَّطْر**"، بحذف الأداة والفعل، والتقدير: أأوصي بالشطر وهو النصف، لضيق الصدر أيضا، فيعيد له النبيﷺ الإجابة على

١ - أجمع العلماء على أن من مات وله ورثة فلا يحق له أن يوصي بجميع ماله، واختلف فيمن مات وليس له وارث، هل له أن يوصي بجميع ماله أم لا؟ أجازه بعضهم، ومنعه آخرون. ينظر: شرح النووي على مسلم: ٧٧/١١، وإكمال المعلم بفوائد مسلم: ٥/ ٣٦٤.

النسق نفسه الذي وردت عليه الإجابة الأولى:" **لاَ**" وما اشتملت عليه من إيجاز بالحذف أيضا، فينزل سيدنا سعد إلى الثلث، ولا يتخلى عنه الإيجاز بحذف الأداة والفعل أيضا كسابقه:" **الثُّلُثُ** "، وتستمر الإجابة النبوية معتمدة الحذف أيضا:" **فَالثُّلُثُ**(١)، **وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ**"، وهكذا كان الإيجاز بالحذف هو السمة الغالبة على الأسئلة وأجوبتها، وكان ملائما للمقام أيما ملاءمة.

ويترفق النبيﷺ بسيدنا سعد – ربما لما بدا عليه من علامات الحزن من عدم الوصية بماله كله أو نصفه ظنا منه أنه قصَّر عن تحصيل الثواب– فيستطردﷺ مبينا له أن تحصيل الثواب لا يقتصر على الوصية، وليست هي أفضل أنواع الثواب، وإنما إغناء الورثة، وكفايتهم طريق من أفضل الطرق لتحصيله، فيأتي قولهﷺ:" **إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ**" وهو تعليل للنهي عن الوصية بأكثر من الثلث يؤكد الحث على إغناء الورثة وكفايتهم.

وتأكيد الجملة التعليلية بـ (إنَّ)، والتقابل بين ترك الورثة أغنياء وتركهم عالة على غيرهم؛ مبالغة في تأكيد الحث على إغناء الورثة، وقد أبرز هذا التطابق المفارقة بين حالتين متناقضتين للورثة، مما يجعل المورَّث يتأمل هاتين الحالتين لورثته بعد موته، وينظر ماذا يختار لهم؟ مما يجعله حريصا على ألا يوصي بكل ماله أو نصفه، وإنما يحرص على إغناء ورثته مثلما يحرص على تحصيل الثواب لنفسه، وهي دعوة لعدم الأنانية مع أقرب الناس إليه وأحب الناس إلى قلبه، وهذا لا شك تأكيد لعظمة هذا الدين الذي يحافظ على كرامة المسلم وعزته بالمواءمة بين متطلبات الدنيا والآخرة.

والتعبير بالورثة ولم يكن لسيدنا سعد يومها إلا ابنة واحدة كما ذكر في آخر الحديث" لِكَوْنِ الْوَارِثِ حِينَئِذٍ لَمْ يَتَحَقَّقْ لِأَنَّ سَعْدًا إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ بِنَاءً عَلَى

١ – كلمة الثلث يجوز فيها الرفع على أنها فاعل لفعل محذوف، والتقدير: يكفي الثلث، أو أنها مبتدأ لخبر محذوف، والتقدير: الثلث كاف، ويجوز النصب على المفعولية بإضمار الفعل والفاعل، والتقدير: أعط أو عيِّن الثلث أو على الإغراء. ينظر: فتح الباري لابن حجر ٥/٣٦٥، وشرح النووي: ١١/ ٧٦.

مَوْتِهِ فِي ذَلِكَ الْمَرَضِ وَبَقَائِهَا بَعْدَهُ حَتَّى تَرِثَهُ وَكَانَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ تَمُوتَ هِيَ قَبْلَهُ فَأَجَابَ – صلى الله عليه وسلم – بِكَلَامٍ كلي مُطَابق لكل حَالَة وَهُوَ قَوْلُهُ وَرَثَتَكَ وَلَمْ يَخُصَّ بِنْتًا مِنْ غَيْرِهَا"[١]، فالتعبير النبوي شامل لكل الورثة الموجودين والمحتملين، ولهذا كان التعبير به أبلغ وأشمل وأدق؛ لشموله كل" حال يموت عليها سعد، سواء أورثته ابنته وحدها أم مع غيرها أم ورثه غيرها، ولم يخص ابنته دون سواها ليشمل جميع الورثة وأنه مطالب بأن يغنيهم بما يقيهم ذل السؤال"[٢]، يؤكد ذلك أن سيدنا سعد عاش بعد هذا المرض ما يقرب من خمسين سنة ورزقه الله تعالى بأبناء وبنات كثيرين.[٣]، ومما يبالغ في الحث على إغناء الورثة أيضا إضافتهم إلى ضمير المخاطب" **وَرَثَتَكَ**"، دون أن يقال: أن تدع الورثة، ففي الإضافة إلماح إلى ترقيق قلبه، فهم ورثته المقربون إليه، المحببون إلى نفسه، فعليه أن يستشعر ذلك ويعمل بما تستوجبه هذه المحبة من الإغناء والكفاية، وفي هذا زيادة حث على إغنائهم.

وتتأنق الكناية في إبراز صورة الذلة والحاجة التي يكون عليها الورثة حين يتركهم عائلهم فقراء، وذلك قولهﷺ:" **يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ**"، أي : يتذللون إليهم أملا في أخذ الصدقة في أيديهم، والمعنى:" يَسْأَلُونَ النَّاسَ بِأَكُفِّهِمْ، يُقَالُ: تَكَفَّفَ النَّاسَ، وَاسْتَكَفَّ إِذَا بَسَطَ كَفَّهُ لِلسُّؤَالِ، أَوْ سَأَلَ مَا يَكُفُّ عَنْهُ الْجُوعَ، أَوْ سَأَلَ كَفًّا كَفًّا مِنْ طَعَام"[٤]، وهذا كناية عن شدة الحاجة والعوز، وبالغ في إبراز شدة حاجتهم تضعيف الفعل" **يَتَكَفَّفُونَ**"، والتعبير بـ" **النَّاسَ**" وما يدل عليه من عموم؛ للإشارة إلى شدة حاجتهم فهم يسألون كل أحد دون التفريق بين من سيعطيهم ومن سيمنعهم، وهذا برهان قوي على شدة حاجتهم، فهم يلتمسون أي شيء من أي أحد، وتصل المبالغة قمَّتها حين يطلبون

١ – فتح الباري لابن حجر: ٥/ ٣٦٦.
٢ – الأدب النبوي: ٢٣١.
٣ – ينظر: عمدة القاري: ١٤/٣٤.
٤ – فتح الباري لابن حجر: ٥/ ٣٦٦.

الصدقة" **فِي أَيْدِيهِمْ**"؛ مما يدلل على شدة حرصهم على أخذ الصدقات، وهذا دليل على شدة حاجتهم، وفي هذا زيادة حث على إغنائهم، وبهذا كانت كل كلمة في الجملة التعليلية وما اشتملت عليه من إبراز الحالتين المتقابلتين للورثة ترمي إلي تقوية الحث على إغناء الورثة حتى يكونوا من أصحاب الحالة الأولى لا الثانية، فلا شك أنه لا يوجد إنسان به مسكة من عقل أو قلب يرضى أن يكون ورثته بهذه الصورة المخزية التي صورتها الكناية.

ولم يكتف النبيﷺ بالتعليل الأول لسيدنا سعد ﷺ حتى لا يكون في نفسه شيء من عدم وصيته بكل ماله أو نصفه، وإنما أتبعه بتوجيه آخر يطيب خاطره، ويحثه أيضا على إغناء ورثته، مبينا له أن الثواب غير محصور في الوصية إلى الفقراء ووجوه الخير المعروفة، وإنما أي عمل يعمله الإنسان مبتغيا به وجه الله– تعالى– يكون سبيلا لتحصيل الثواب والأجر حتى لو كان مما يجب عليه، يوضح ذلك قولهﷺ:" **وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ، فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ**"، والتعبير بالشرط المؤكد" **وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ**" لتأكيد ثواب الإنفاق، وأن الثواب لا ينحصر في الوصية بكل المال أو نصفه، وهذا زيادة في الحث على إغناء الورثة، وتنكير نفقة للعموم، أي: أيّ نفقة صغيرة كانت أو كبيرة، وأيضا تنكير صدقة للتعظيم، أي: أنه مهما صغرت الصدقة فإن ثوابها يكون عظيما.

وتخصيص الإنفاق على الزوجة بعد ذكر الإنفاق عاما زيادة في الحث على إغناء الورثة وكفايتهم، وهو تخصيص بعد تعميم يفيد تأكيد ثواب الإنفاق عامة ، وذلك لأن " زَوْجَةَ الْإِنْسَانِ هِيَ مِنْ أَخَصِّ حُظُوظِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَشَهَوَاتِهِ وملاذه المباحة، وَإِذَا وَضَعَ اللُّقْمَةَ فِي فِيهَا فَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْعَادَةِ عِنْدَ الْمُلَاعَبَةِ وَالْمُلَاطَفَةِ وَالتَّلَذُّذِ بِالْمُبَاحِ فَهَذِهِ الْحَالَةُ أَبْعَدُ الْأَشْيَاءِ عَنِ الطَّاعَةِ وَأُمُورِ الْآخِرَةِ وَمَعَ هَذَا فَأَخْبَرَ – صلى الله عليه وسلم – أَنَّهُ إذَا قَصَدَ بِهَذِهِ اللُّقْمَةِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى حَصَلَ لَهُ الْأَجْرُ بِذَلِكَ فَغَيْرُ هَذِهِ الْحَالَةِ أَوْلَى بِحُصُولِ الْأَجْرِ إذَا أَرَادَ

وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى"[١]، وهو مما يبالغ في الحث على إبقاء معظم المال للورثة وإغنائهم، وتحصيل الثواب بأي طريق آخر وما أكثرها!

ويمتد الحث على إغناء الورثة إلى نهاية الحديث؛ فيُختم بقولهﷺ:" **وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ، فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ**"، ومعناها: عسى الله أن يطيل في عمرك، فيصل نفعك إلى أناس، ويضر بك آخرون، وإيثار التعبير بعسى دون لعل وكلتاهما للرجاء لما ذكره الشنقيطي من" أن عسى في كلام الله ما تدخل عليه محقق الوقوع، ولا كذلك لعل، لقوله تعالى {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} فلم يتذكر ولم يخش"[٢]، وقد حدث ذلك فعلا فعاش سيدنا سعد بعدها قرابة خمسين عاما، وفتحت على يديه بلاد كثيرة، وتحطمت ممالك عدة، وإخبار النبيﷺ له بذلك إيماء وحث له على عدم الوصية بكل ماله، وسيرزقه الله بالذرية التي يجب عليه إغناؤها، وصيانة وجهها.

وهكذا كان الحديث لوحة مشرقة توجه إلى خيْريَّة إغناء الورثة، وصون ماء وجههم عن الذلة للمخلوقين بعد موت من يعولهم، واعتمد الحديث طرقا وألوانا كثيرة كانت غاية في البلاغة والدقة في تحقيق الهدف.

بقي أن أشير إلى علاقة ما جاء في هذا الحديث الشريف وما جاء في القرآن الكريم، فالقرآن الكريم حين تحدث عن الوصية تحدث حديثا مجملا لا تحديد فيه، وذلك مثل حديثه عن الصلاة والزكاة وغيرها، فجاءت السنة النبوية هنا وقيدت الوصية بالثلث وأقل، مما يبرز مكانة السنة من القرآن الكريم، وأنها مقيدة لبعض ما جاء به، ومفصَّلة له. والله أعلم.

*****

١ – شرح النووي على مسلم: ١١/ ٧٧،٧٨.

٢ – كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري: ١١/ ٤١٨.

الحديث السادس
خيْريَّة اجتناب الفتن

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –: «سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً، أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ»(١)

ومقام الحديث ترهيب وتحذير من الفتن التي ستحدث بعد زمن النبيﷺ، وحث على اجتناب الدخول فيها، أو التشبث بشيء منها، أو التسبب فيها بأي طريق، فإن شرها وفتنتها تكون على حسب التعلق بها، ودور الإنسان فيها.

ومعنى الحديث: " يخبرنا الصادق المصدوقﷺ أنه ستقع بين المسلمين فتن دموية عظيمة، تنشب فيها الحروب، من أجل خلافات سياسية منشؤها التنازع على السلطة والتنافس على الوصول إلى مراكز النفوذ والسلطان. وقد حذر النبي ﷺ المسلمين من التورط في هذه الفتن، والمشاركة بالقتال فيها، وبَيَّنَ أنَّ الناس تجاهها أربعة أقسام، قاعد عنها لا يشترك في حروبها ولا يساهم بالقتال فيها، وإنما ينظر إليها من بعد، وقائم بها مشارك في حروبها ومعاركها يقاتل فيها بنفسه وماله، وداعٍ إليها ومتسبب في وجودها وإثارتها، فالقسم الأول: وهو القاعد عنها هو وحده الذي يسلم من شرورها

---

١ – أخرجه الشيخان: البخاري كتاب: الفتن، باب: تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، ح(٧٠٨١)، ٥١/٩، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: نزول الفتن كمواقع القطر، ح(٢٨٨٦)، ٤/ ٢٢١١. ومعنى تشرّف: من الْإِشْرَافِ لِلشَّيْءِ وَهُوَ الِانْتِصَابُ وَالتَّطَلُّعُ إِلَيْهِ وَالتَّعَرُّضُ لَهُ وَمَعْنَى تَسْتَشْرِفْهُ: تَقْلِبْهُ وَتَصْرَعْهُ وَقِيلَ هُوَ مِنَ الْإِشْرَافِ بِمَعْنَى الْإِشْفَاءِ عَلَى الْهَلَاكِ وَمِنْهُ أَشْفَى الْمَرِيضُ عَلَى الْمَوْتِ وَأَشْرَفَ. ينظر: شرح النووي على مسلم: ٩/١٨.

وآثامها، أما بقية الأقسام الثلاثة فإنّها قد تورطت في شر هذه الفتن، ووقعت في معصية الله تعالى"[١].

ولعل أول ما يلفت النظر في الحديث هو خوف النبيﷺ على أمته من هذه الفتن التي أخبر عنها، ولذلك جعل الخيْريَّة في الحديث درجات حسب دور الإنسان وبعده عن هذه الفتن وعدم المشاركة فيها، بادئا بأعلى درجات الخيْريَّة، وصولا إلى أدناها، ثم ختم الحديث بالتوجيه إلى الابتعاد عنها، والبحث عن مكان يستجير به حتى يكون في مأمن من شرورها.

ويبدأ الحديث بقولهﷺ:" **سَتَكُونُ فِتَنٌ**" السين لتأكيد تحقيق ما دخلت عليه، أي أن هذه الفتن واقعة لا محالة، وإيثار التعبير بالسين دون سوف دلالة على قرب وقوعها، مما يساعد على التحذير منها، والاستعداد للهروب بعيدا عنها، وقد تحقق ما أخبر به النبي ﷺ حيث حدث ذلك عن قرب عند مقتل سيدنا عثمان ﷺ بعد موت النبيﷺ بسنوات قليلة[٢].

وتنكير " **فِتَنٌ**" وجمعها للتهويل والتكثير، أي أنها فتن كثيرة شديدة، وهذا مما يبالغ في التحذير منها،" وخصها بعضهم بالاختلاف الذي يكون بين المسلمين بسبب افتراقهم على الإمام ولا يكون المحق فيها معلوما"[٣]، وحملها على العموم أولى؛ لعدم ورود ما يدل على تخصيصها؛ ولما فيه من حماية للمسلمين بتحذيرهم من كل أنواع الفتن.

وإخبار النبيﷺ عن هذه الفتن على طريق الإجمال ترهيب قوي منها، ومبالغة في بيان شدتها وخطورتها وكثرتها، وأنها يعجز الوصف عن تفصيلها أو حصرها مما يبرز خطرها، ويساعد على التخويف منها.

وبعد هذا التخويف الشديد في مطلع الحديث يبين النبيﷺ أحوال الناس حيالها، فيبدأ ببيان خير هذه الأحوال، وذلك قوله:" **القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ**"

١ – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري: ٥/ ٣٥٥.
٢ – ينظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم: ١٠/ ٥٠٧.
٣ – عمدة القاري: ٢٤/ ١٩٠.

أي: أسلم الناس من لا ينشغل بهذه الفتن، ولا يتطلع إليها، وخيْريَّته هنا" لأنه لا يرى ولا يسمع ما يراه ويسمعه القائم، فيكون أبعد عن الفتنة"[١]، والقعود هنا كناية عن اعتزالها وعدم التطلع إليها، كما أن القيام كناية عن التطلع إليها، وقد صورت الكنايتان حالتين متقابلتين للمؤمن حيال الفتن والإخبار بخيْريَّة القاعد فيها عن المتطلع إليها، وساعد على ذلك الطباق بين القاعد والقائم.

ويتدرج الحديث لبيان نوع آخر من البشر تكون خيْريَّته أقل من الأولين وأنه لا يسلم من الشرور، وهو الذي يسعى نحوها سعيا حثيثا، فيكون له دور فيها، وذلك قولهﷺ:" **وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي**"، والمشي أيضا كناية عن السعي الحثيث، والاشتراك فيها اشتراكا غير مباشر، وهذا النوع لا يسلم من شرورها حتى مع عدم مباشرته لها، وهذا مما يتناسب أيضا مع مقام الحث.

ويختم هذا التدرج بأشرِّ الأنواع، وهو الساعي فيها الحريص على إشعالها، يتضح ذلك من قولهﷺ:" **وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي**"، والتعبير بالساعي لأنه" يجعلها غاية سعيه، ومنتهى غرضه، لا يرى مطلبا غيرها"[٢]، ولم يُقيَّد السعي بالجار والمجرور" **فِيهَا**" كما قُيدت الأنواع الثلاثة السابقة؛ لعموم السعي، وبيان أن الساعي يبذل كل ما في وسعه مما يظن أنه سيشعل نار الفتنة حتى ولو لم يكن متعلقا بها؛ مما يبرز شدة حرصه على إيقادها؛ ولذا استحق أن يكون أشرَّ الأنواع.

وبالتأمل يتضح أن الخيْريَّة في الأنواع الثلاثة الأخيرة ليست مطلقة، وإنما هي خيْريَّة بالنسبة إلى ما بعدها فقط، وهذا تدرج في التحذير والترهيب ربما يجعل الساعي فيها يرجع خطوة إلى الخلف ليحصِّل الدرجة الأعلى، وهي درجة الماشي؛ فيكون ذلك استدراجا للوصول إلى الخيْريَّة المطلقة المتمثلة في القعود عنها، وهو لا شك استدراج يتماشى مع طبيعة النفس البشرية؛ فالنفس

١ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٨/ ٣٣٨٤.
٢ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٨/ ٣٣٨٤.

التي جبلت على السعي في الفتنة، والحرص على إيقادها لا يمكن نقلها مرة واحدة للدرجة الأسمى وهي البعد كلية عنها، فهو تدرج حكيم يأتي النفوس بما يتواءم مع طبائعها فيكون ذلك أدعى للامتثال، كما في تحريم الخمر وغيرها(١).

ويبلغ الحث على الابتعاد عن الفتن ذروته من خلال التخويف الشديد" **مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ**"، أي من تطلع لها أهلكته، وإيراد هذا المعنى في سياق أسلوب الشرط تأكيد للمعنى، وإشعار بتحقق الإهلاك عند التطلع إليها، وهذه مبالغة في التحذير منها، وامتدادا لحبل المبالغة يأتي التعبير بالتشرُّف" **تَشَرَّفَ**" بمعنى تطلَّع، وهو أقل شرا من المشي والسعي؛ لتصل المبالغة في التخويف أعلى درجاتها فإذا كان أقل الدرجات وهو مجرد التطلع إليها فيه الهلكة فما بالك بما هو فوقه.

واستعارة الاستشراف للإصابة والإهلاك في جواب الشرط" **تَسْتَشْرِفْهُ**"، تصوير رائع للفتنة بسبع يتطلع إلى من يتطلع إليه فيفتك به، ويهلكه، والتعبير بالاستشراف دون الإهلاك من باب المشاكلة، وفي هذا إلماح إلى أنه على قدر الدور الذي يقوم به المشارك في الفتنة تكون الإصابة، فمن تشرف إليها تستشرفه، ومن مشى إليها تمشي إليه، ومن سعى إليها تسعى إليه.

ويختم الحديث ببيان كيفية الخلاص والابتعاد عن الفتن عندما تحدث؛ بأن يبحث الإنسان عن ملجأ يتحصّن به بعيدا عنها، وذلك قولهﷺ:" **فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً، أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ**"، وإيراد هذا المعنى في سياق الشرط تأكيد له أيضا، وزيادة حث على الابتعاد وأخذ الحيطة من الوقوع في شرك هذه الفتن

١ – من يطالع القرآن الكريم في معالجته للأشياء التي طُبعت عليها النفس البشرية، وأصبحت عادة متأصلة فيها ثابتة لها، يلحظ التدرج في تحريمها، كتحريم الخمر على مراحل، وكتحريم الربا بالأمر بحطِّ الزيادة أولا وأخذ رأس المال فقط ، ثم بإنظار المعسر إلى أن يتيسر له السداد، ثم بالحث على التصدق حتى برأس المال إذا لم يقدر المدين على السداد، وهذا لا شك تدرج يتماشى مع طبائع النفوس يبعث على تنفيذ المأمور به.

التي حذر منها النبيﷺ، والمتأمل لهذا الشرط يلحظ عموم هذه الفتن وانتشارها حتى إنها لن تترك مكانا؛ مما يتطلب من المسلم أن يبحث عن ملجأ يتحصّن به حتى لا يصيبه شرها، وهو ما يزيد الحث على التحذير من هذه الفتن، ويبالغ في التخويف منها.

وبعد: فقد أخبر الحديث بوقوع فتن كثيرة، وبيَّن أنواع الناس حيالها، وكيفية الخلاص والتحصن من شرورها، واعتمد الحديث في بيان ذلك ألوانا بلاغية كثيرة كان من أبرزها استعمال أسلوب الشرط وما يشتمل عليه من تأكيد، والكناية أيضا، والاستعارة والمشاكلة وغيرها، فساعدت على أداء المعنى على خير وجه، وكانت غاية في البلاغة.

*****

الحديث السابع

خيْريَّة القرون الأولى في الإسلام

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ، وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ»[١].

ومقام الحديث إخبار بفضل الصحابة– رضوان الله عليهم–، ثم التابعين، ثم تابعي التابعين على ما بعدهم من القرون.

ومعنى الحديث: أن خير القرون القرن الذي عاش فيه النبي ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وهكذا حتى يأتي آخر الزمان بقوم بعيدين عن التعاليم بقدر بعد الزمان، لا يتورعون عن الشهادة والأيمان الباطلة.

ولما كان المقام للإخبار فقد سيطر الأسلوب الخبري على الحديث من أوله إلى آخره، فيبدأ الحديث بقولهﷺ:" **خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**"[٢]، أي الذين أدركوني وآمنوا بي وهم أصحابي، وسبب اختصاصهم بالخيْريَّة هنا أنهم" آمنوا به حين كفر الناس وصدقوه حين كذبوه ونصروه حين خذلوه وجاهدوا وآووا"[٣]، والتعبير بالقرن وإرادة أهله من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الزمنية، وقد أبرز

١ – أخرجه الشيخان: البخاري، كتاب الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، ح(٦٤٢٩)، ٩١/٨، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة – رضي الله تعالى عنهم– ، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ح(٢٥٣٣)، ٤/ ١٩٦٣.

٢ – اختلف الشراح في المقصود بالقرن على أقوال كثيرة؛ فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: قَرْنُهُ أَصْحَابُهُ وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ أَبْنَاؤُهُمْ وَالثَّالِثُ أَبْنَاءُ أَبْنَائِهِمْ، وَقَالَ شَهْرٌ قَرْنُهُ مَا بَقِيَتْ عَيْنٌ رَأَتْهُ، وَالثَّانِي مَا بَقِيَتْ عَيْنٌ رَأَتْ مَنْ رَآهُ، ثُمَّ كَذَلِكَ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ الْقَرْنُ كُلُّ طَبَقَةٍ مُقْتَرِنِينَ فِي وَقْتٍ، وَقِيلَ هُوَ لِأَهْلِ مُدَّةٍ بُعِثَ فِيهَا نَبِيٌّ طَالَتْ مُدَّتُهُ أَمْ قَصُرَتْ، وَذَكَرَ الْحَرْبِيُّ الِاخْتِلَافَ فِي قَدْرِهِ بِالسِّنِينَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ إِلَى مِائَةٍ وعشرين ثم قال وليس منه شئ وَاضِحٌ ، وَرَأَى أَنَّ الْقَرْنَ كُلُّ أُمَّةٍ هَلَكَتْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا أَحَدٌ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ الْقَرْنُ عَشْرُ سِنِينَ وَقَتَادَةُ سَبْعُونَ وَالنَّخَعِيُّ أَرْبَعُونَ وَزُرَارَةُ بْنُ أَبِي أَوْفَى مِائَةٌ وَعِشْرُونَ وَعَبْدُ الملك بن عمير مائة وقال بن الْأَعْرَابِيِّ هُوَ الْوَقْتُ هَذَا آخِرُ نَقْلِ الْقَاضِي وَالصَّحِيحُ أَنَّ قَرْنَهُ= =صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّحَابَةُ وَالثَّانِي التَّابِعُونَ وَالثَّالِثُ تَابِعُوهُمْ . شرح النووي على مسلم: ١٦/ ٨٥.

٣ – فيض القدير: ٣/ ٤٧٨.

المجاز هنا شمول الخير وعمومه وهو مما يعضّد الرأي القائل بأن الخيْريَّة هنا بالنسبة إلى المجموع(١).

والحقيقة أنهم جديرون بهذه الخيْريَّة؛ ولا أدل على ذلك من قول الحسن البصري– رحمه الله– وهو مَن هو في الفضل والشرف والعلم:" لقد أدركنا أقواما وهم الصحابة أهل القرن الأول كنا في جنبهم لصوصا وقال: أدركنا الناس وهم ينامون مع نسائهم على وسادة واحدة عشرين سنة يبكون حتى تبتل الوسادة من دموعهم لا يشعر عيالهم بذلك، وقال: ذهبت المعارف وبقيت المناكير... وقال الربيع بن خيثم: لو رآنا أصحاب محمد ﷺ لقالوا هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب"(٢).

وتمتد الخيْريَّة لتشمل في الدرجة الثانية التابعين، وهم المرادون بقوله ﷺ:" **ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**"، أي يقربون منهم وهم التابعون.

والعطف بـ (ثم) فيه إلماح إلى الدرجة العالية لخيْريَّة الصحابة على التابعين، وأن الصحابة يزيدون عليهم فيها زيادة ليست بالقليلة، والتعبير بالموصولية" **الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**"، إشارة إلى وجه استحقاقهم الخيْريَّة، وهو أنهم يقتربون منهم، ويقتفون أثر الصحابة في الصلاح والتقوي وفي شتى وجوه الخير.

وفي الدرجة الثالثة يأتي تابعوا التابعين حيث قوله ﷺ:" **ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**" وما قيل في سابقتها يقال هنا، ونقل المناوي عن الخواص قوله:" كان لأهل القرن الأول كمال الإيمان، ولأهل الثاني كمال العلم، ولأهل الثالث كمال العمل ثم تغيرت الأحوال والمواسم في أكثر الناس"(٣).

١ – اختُلف هل الخيْريَّة هنا بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد على أقوال. ينظر: إرشاد الساري: ٤/ ٣٨٤.
٢ – فيض القدير: ٣/ ٤٧٩.
٣ – السابق: الصفحة.

وبعد ذلك ينتشر الفساد والفجور شيئا فشيئا، وتُمحى الخيْريَّة، ويفشو الشر، يبين ذلك قولهﷺ:" **ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ، وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ**"، أي: يكثرون الأيمان في كل شيء حتى تصير عادة لهم.

والتعبير بالمضارع" **يَجِيءُ**" إشعار بتجدد ظهورهم وانتشارهم في كل العصور، والتعبير بـ" **قَوْمٌ**" دون " ناس" كما جاء في مطلع الحديث مما يدل على اتحادهم في هذه الصفة الذميمة واجتماعهم عليها، فالقوم: الجماعة شأنهم واحد، وهذا تعليل لعدم استحقاقهم للخيْريَّة.

وبعد ذلك يأتي الوصف الذميم لهم" **تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ، وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ**"، وهو كناية عن عدم مبالاتهم بالدين، وعدم خوفهم من الله تعالى، وتآزر مع الكناية في إبراز شدة تخبطهم وعدم خوفهم من خالقهم– سبحانه– العكس والتبديل[١]، فهم" يحلفون تارة قبل أن يشهدوا، ويشهدون تارة قبل أن يحلفوا حرصًا على ترويج شهادتهم"[٢]؛ مما يؤكد عدم استحقاقهم لأن يشملهم وصف الخيْريَّة.

ويبدو لي والله أعلم أن في الكلام حذفا دل عليه السياق، والتقدير: ثم يجيء بعد ذلك قوم لا يستحقون الخيْريَّة تسبق شهادتهم أيمانهم، وأيمانهم شهادتهم. فحذف الوصف" لا يستحقون الخيْريَّة" لدلالة الكلام عليه، وفي هذا إيجاز يساعد على قوة سبك الكلام.

والاقتصار على وصفهم بهذا الوصف لا يعنى أنه الوصف الذميم الوحيد الذي يتصفون به في هذا الزمن، وإنما لهم أوصاف غير ذلك بينتها

١ – العكس والتبديل من فنون البديع المعنوي وهو: (أن يقدم أول الكلام جزء ثم يؤخر) أي يؤخر الجزء المقدم ويقدم الجزء المؤخر لنكتة. عروس الأفراح في تلخيص المفتاح للسبكي، ت/ د/ عبد الحميد هنداوي،٢/٢٤٠، نشر/ المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٢ – إرشاد الساري: ٩/ ٢٤٧.

أحاديث أخرى[١]، ولعل الاقتصار على هذا الوصف هنا تأكيد عليه، وبيان أنه من أبرز أوصافهم السيئة في هذه الأزمنة، مما يبعدهم عن استحقاق الخيْريَّة.

وبهذا فقد سلط البيان النبوي هنا الضوء على وصف من أخص أوصافهم، وجعله في موضع العلة لعدم خيْريَّتهم، وبيان هذا البون الشاسع بينهم وبين القرون السابقة عليهم.

فالحديث في مجمله أخبر بخيْريَّة القرون الثلاثة الأولى إخبارا غير معلل، لوضوح الأدلة على خيْريَّة هذه القرون، فليست بحاجة إلى تعليل يثبتها للمخاطبين، بخلاف غيرها من القرون غير المستحقة للخيْريَّة حيث جاءت معللة؛ ولعل ذلك حتى يستثني الصالحين من هذه القرون، الذين لا يتصفون بهذا الوصف الذميم، فمن يتصفون به هم وحدهم الذين يشملهم وصف عدم الخيْريَّة؛ مما يؤكد عدالة هذا الدين وأنه لا يعاقب إلا بذنب.

وفي النهاية تجدر الإشارة إلى أن هذا الحديث لا يتعارض مع الحديث الذي أخرجه الحاكم" **عَنْ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – جَالِسًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –: «أَتَدْرُونَ أَيُّ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَفْضَلُ إِيمَانًا؟» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمَلَائِكَةُ؟ قَالَ: «هُمْ كَذَلِكَ وَيَحِقُّ ذَلِكَ لَهُمْ وَمَا يَمْنَعُهُمْ وَقَدْ أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلَهُمْ بِهَا بَلْ غَيْرُهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ– تَعَالَى– بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ؟ قَالَ: «هُمْ كَذَلِكَ وَيَحِقُّ لَهُمْ ذَلِكَ وَمَا يَمْنَعُهُمْ وَقَدْ أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلَهُمْ بِهَا بَلْ غَيْرُهُمْ» قَالَ: قُلْنَا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَقْوَامٌ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ فَيُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي وَيَجِدُونَ الْوَرَقَ**

١ – تعددت الأوصاف المذمومة التي يتصف بها أهل آخر الزمان في البيان النبوي كأكلهم الربا، وأكل الحرام، كما **أخبر الحديث:" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لاَ يُبَالِي المَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الحَلاَلِ أَمْ مِنَ الحَرَامِ»**. صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب: من لم يبال من حيث كسب المال، ح(٢٠٥٩)، ٣/٥٥. وغير ذلك.

الْمُعَلَّقَ فَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ فَهَؤُلَاءِ أَفْضَلُ أَهْلِ الْإِيمَانِ إِيمَانًا»[١]، حيث إن الأفضلية هنا مقيدة بالإيمان مع عدم رؤية النبيﷺ بخلاف الخيْريَّة في الحديث الذي معنا فهي خيْريَّة تشمل المجموع كما ذكرت، وعلى هذا فلا تعارض بين الحديثين. والله أعلم.

ويمكن الربط بين ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في هذا الحديث الشريف بأن القرآن الكريم حين تكلم عن خيْريَّة الأمة تحدث حديثا عاما، بيَّن فيه خيْريَّة الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران:١١٠)، وبيَّن النبيﷺ في هذا الحديث درجات الخيْريَّة، وأنها في صحابته ومن تبعهم من التابعين وتابعي التابعين أكثر؛ مما يبرز الصلة الوثيقة بين السنة النبوية والقرآن الكريم. والله أعلم.

١ – المستدرك على الصحيحين للحاكم، ت/ مصطفى عبد القادر عطا: كتاب : معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب: ذكر فضائل الأمة بعد الصحابة والتابعين، ح(٦٩٩٣)، ٩٦/٤، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م. والحديث صححه الحاكم.

الحديث الثامن

خيْريَّة يوم الجمعة

عن أَبَي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ»[١].

ومقام الحديث إخبار بفضيلة يوم الجمعة، وبيان مزيته على سائر أيام الأسبوع، وفيه من خلال المفهوم حث على الأعمال الصالحة والإكثار منها في هذا اليوم؛ لأن الأعمال كما ذكر الحافظ ابن حجر:" تشرف بشرف الأزمنة كالأمكنة"[٢].

وسياق الحديث يبين خيْريَّة يوم الجمعة، ويعلل اختصاصه بالخيْريَّة دون غيره من باقي أيام الأسبوع– فالأيام في أنفسها لا تتفاضل– بأمور منها: خلق أبي البشر آدم– عليه السلام–+

في هذا اليوم، وإدخاله الجنة فيه، وإخراجه منها فيه أيضا، وكذا قيام الساعة في هذا اليوم.

وأول ما يلفت النظر في الحديث هو إيراده في صورة العلة والمعلول، وتقديم المعلول أولا(الإخبار بخيْريَّة يوم الجمعة) على العلة(فيه خلق آدم...إلى آخر الحديث) تأكيد للمعنى المقصود من الحديث، وهو الإخبار بخيْريَّة يوم الجمعة؛ فإثبات الشيء معللا – كما يقول العلوي–:" آكد في النفس من إثباته مجردا عن التعليل"[٣]، فهو وسيلة من وسائل تأكيد المعنى وتمكينه في النفوس.

واستهلال الحديث بالخبر في سياق الجملة الاسمية" **خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ**"؛ إشعار بثبوت وصف الخيْريَّة ولزومه لهذا اليوم

١ – صحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة، ح(٨٥٤)، ٢/ ٥٨٥.
٢ – فتح الباري لابن حجر: ٨/ ٢٧١.
٣ – الطراز للعلوي: ٣/ ١٣٨، ١٣٩، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

منذ اختارته الأمة الإسلامية- بتوفيق الله تعالى وهدايته لهم- ليكون عيدا أسبوعيا لها[١] إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وتوسيط الصفة" **طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**" بين المبتدأ والخبر للدلالة على عموم خيْريَّة هذا اليوم، والإشعار بأن خيْريَّته تعم كل ما في الوجود مما تصل إليه الشمس، ومعروف أن الشمس حين تطلع تعم كل الأرجاء؛ ولعل هذا هو سر اختيارها دون غيرها من الظواهر الكونية، هذا فضلا عن أنها الحاضرة في كل العصور، الشاهدة على كل الأحداث، فقد شهدت خلق آدم، ودخوله الجنة، وخروجه منها، وتشهد قيام الساعة، بل هي إحدى علاماتها حيث تطلع من المغرب؛ فكان التعبير بها متناسبا مع الأحداث التي ذكرت في الحديث، ولعل هذا هو السر نفسه الذي جعل أمير الشعراء يستنطقها – دون غيرها – لتكون شاهدة على مصارع الظالمين في كل العصور في مطلع قصيدته المعنونة (توت عنخ آمون)، وذلك قوله:

قِفِي يَا أُختَ يوشَعَ خبِّرينَا! ..... أَحَاديثَ القُرونِ الغَابِرِينَا
وقُصِّي من مَصَارِعِهِم علينْا ..... ومِنْ دُولاتِهِمْ مَا تَعْلمِينَا
فَمِثْلكِ مَنْ رَوى الأخْبَارَ طُرّاً..... وَمَنْ نَسَبَ القَبَائلَ أَجْمَعِينَا[٢]

مما يبرز تناسبها مع ذكر الأحداث التي ذكرت في الحديث، من خلق آدم وغيره مما ذكر في الحديث، هذا فضلا عما تدل عليه من عموم يتناسب

١ – أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرةﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، فَهُمْ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، فَالْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ». صحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، ح(٨٥٥)، ٢/٥٨٦. وذكر الهروي أنه: جُمِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَقْدِمَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الْجُمُعَةُ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : إِنَّ لِلْيَهُودِ يَوْمًا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ كُلَّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، وَلِلنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ، فَلْنَجْعَلْ يَوْمًا لِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنُصَلِّي وَنَشْكُرُ فِيهِ، فَجَعَلُوهُ يَوْمَ الْعَرُوبَةِ، وَاجْتَمَعُوا إِلَى سَعْدِ بْنِ زُرَارَةَ، فَصَلَّى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ رَكْعَتَيْنِ، وَذَكَّرَهُمْ فَسَمَّوْهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ} [الجمعة: ٩] اهـ. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٣/ ١٠٠٩.

٢– الشوقيات: صـ٣٦١، طبعة مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

مع عموم خيْريَّة يوم الجمعة، وهذا يؤكد دقة البيان النبوي في اختيار الأوصاف الملائمة للمعنى، المؤدية له على أكمل وجه.

وبالتأمل يدرك المتلقي أن هذا الوصف الذي جيء به (طلوع الشمس) لا يخص يوم الجمعة فقط، وإنما هو وصف لكل أيام الأسبوع، ووصف النبي ﷺ ليوم الجمعة بما يتصف به أمثاله من باقي الأيام ليكون مهادا لتفضيله عليهم، وزيادته عنهم في أمر من الأمور، أي: أن هذا اليوم أفضل من كل يوم طلعت عليه الشمس.

ولا يتعارض تفضيل يوم الجمعة على باقي الأيام مع تفضيل يوم عرفة؛ فيوم عرفة مفضل على أيام العام، ويوم الجمعة مفضل على أيام الأسبوع، ولو وافق يوم عرفة يوم الجمعة فقد اجتمعت أفضليتان في يوم واحد[١].

وتبدأ تعليلات الخيْريَّة بذكر بعض النعم التي أنعم الله تعالى على خلقه في هذا اليوم؛ لعل ذلك يكون باعثا لهم على الأعمال الصالحة في هذا اليوم المبارك[٢]، وتبدأ هذه النعم بالنعمة الكبرى والحدث الأبرز الذي كان أساسا لهذه البشرية كلها، وهو خلق أبي البشر آدم- عليه السلام-" **فِيهِ خُلِقَ آدَمُ**"، وفي خلق آدم إشارة إلى خلق البشر جميعا؛ ففي ذكر الأصل ذكر للفرع، فالتذكير بنعمة خلق آدم تذكير للبشر جميعا وكأنهم جميعا ولدوا في هذا اليوم، واختصاص آدم بالذكر لما يدل عليه من عموم يشمله هو وذريته، وهذا يستوجب منهم الاستزادة من الأعمال الصالحة في هذا اليوم شكرا لنعمة بداية

---

١ - ينظر: شرح النووي على مسلم: ٦/ ١٤٢، بتصرف، وعون المعبود: ٥/ ١٢٨.

٢ - نقل النووي- رحمه الله- اختلاف بعض شراح الحديث حول اعتبار كل ما ذكر في الحديث نعما تدل على خيْريَّة يوم الجمعة أم لا؟ فقال: قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ الْمَعْدُودَةَ لَيْسَتْ لِذِكْرِ فَضِيلَتِهِ لِأَنَّ إِخْرَاجَ آدَمَ وَقِيَامَ السَّاعَةِ لَا يُعَدُّ فَضِيلَةً وَإِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ وَمَا سَيَقَعُ لِيَتَأَهَّبَ الْعَبْدُ فِيهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِنَيْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَدَفْعِ نِقْمَتِهِ هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي، وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بن العزى فِي كِتَابِهِ الْأَحْوَذِيّ فِي شَرْحِ التِّرْمِذِيّ الْجَمِيعُ مِنَ الْفَضَائِلِ وَخُرُوجُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ هُوَ سَبَبُ وُجُودِ الذُّرِّيَّةِ وَهَذَا النَّسْلِ الْعَظِيمِ وَوُجُودِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا طَرْدًا بَلْ لِقَضَاءٍ أَوْطَارٍ ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهَا وَأَمَّا قِيَامُ السَّاعَةِ فَسَبَبٌ لِتَعْجِيلِ جَزَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ وَإِظْهَارِ كَرَامَتِهِمْ وَشَرَفِهِم. شرح النووي على مسلم: ٦/ ١٤٢.

خلقهم فيه؛" لأن الله خلق الإنسان للعبادة وكان خلقه يومها، فالعبادة فيه أولى؛ لأنه تعالى أوجد في سائر الأيام ما ينفع الإنسان، وفي الجمعة أوجد نفس الإنسان، والشكر فيه يكون على نعمة الوجود"(١).

وتقديم الجار والمجرور" **فِيهِ**" للتخصيص، أي تخصيص ولادة آدم- عليه السلام- في هذا اليوم لا في غيره، تأكيدا لخيْريَّة هذا اليوم.

وقولهﷺ:" **وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ**"، تعداد لنعمة أخرى حدثت في هذا اليوم، وهي نعمة إدخال آدم عليه السلام الجنة، وتقديم الجار والمجرور للتخصيص أيضا كسابقتها؛ تأكيدا للخيْريَّة أيضا.

وتأتي النعمة الثالثة وهي نعمة الإخراج من الجنة، يوضحها قولهﷺ:" **وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا**"، وقد يبدو للناظر أن إخراج آدم- عليه السلام- من الجنة ليس نعمة بناء على الظاهر، لكن الحقيقة أن الإخراج لم يكن للإهانة والإذلال، وإنما كان لمنصب الخلافة في الأرض، وإنزال الكتب السماوية عليه وتكليفه، فهو إخراج تكريم وإكمال لا إهانة وإذلال(٢)، وقدم فيه الجار والمجرور للتخصيص أيضا.

وساعد الطباق بين نعمتي إدخال الجنة والإخراج منها في بيان الحالتين المتباينتين لسيدنا آدم- عليه السلام-، وتأكيدهما، وكانت كل منهما نعمة حدثت في يوم الجمعة تؤكد خيْريَّته، وتستحق الشكر والإكثار من الأعمال الصالحة في هذا اليوم.

وتختم النعم في الحديث بنعمة قيام الساعة في يوم الجمعة أيضا " **وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ**"، وهي نعمة للصالحين الذين يكثرون من الأعمال الصالحة خاصة في يوم الجمعة، وهي نقمة للعاصين المخالفين المقلِّين من الطيبات المقصرين في أداء ما عليهم؛ فهي تحمل ترغيبا للمؤمنين

١ - فيض القدير: ٣/ ٤٩٣.
٢ - ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٣/ ١٠١١.

الطائعين، وترهيبا للكافرين العاصين؛ ولذلك اختلفت طريقة القصر فيها عن الجمل الثلاث قبلها؛ فعلى الرغم من أن الجمل الأربع أكدت بالقصر إلا أن هذه الجملة جاء القصر فيها عن طريق النفي والاستثناء – أقوى طرق القصر– لما تحمله من ترغيب وترهيب في الوقت نفسه بخلاف الجمل الثلاث قبلها فكان القصر فيها عن طريق التقديم، هذا فضلا عن أن النعم الثلاث الأولى حدثت وانتهت، أما الرابعة فلم تحدث بعد؛ فكان الحث على الأعمال الصالحة عن طريق الترغيب والترهيب بها أقوى فاحتاج إلى أسلوب قوي.

وبعد: فقد أبرز الحديث خيْريَّة يوم الجمعة على غيره من باقي أيام الأسبوع، وأكد على ذلك بعدة طرق مختلفة كالتعليل بذكر بعض النعم التي أنعم الله علينا بها في هذا اليوم، وتأكيد إثبات حدوث كل نعمة منها عن طريق القصر وغيرها، وكانت غاية في البلاغة والفصاحة.

*****

الحديث التاسع
خيْريَّة المرأة الصالحة

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –، قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»(١).

ومقام الحديث إخبار بخير ما يُتمتع به في هذه الدنيا، وأن ذلك يتمثل في المرأة الصالحة، وفيه أيضا حث على اختيارها دون غيرها.

والغرض من الحديث بيان حقيقة الدنيا، وأنها عرض زائل، وأن على الإنسان أن يتزود منها بما هو خير له في دينه ودنياه، وأول ذلك المرأة الصالحة.

ويغلب على سياق الحديث أسلوب التخصيص بعد التعميم– حيث شمل الحديث كله– ويتجلى ذلك من خلال تخصيص المرأة الصالحة بالخيْريَّة على غيرها من أفراد متاع الحياة الدنيا، بعد الإخبار عن أن الدنيا وما فيها كله متاع، وقد أفاد ذلك التخصيص تأكيد خيْريَّة المرأة الصالحة، والحث على اختيارها دون غيرها.

وبدأ الحديث بقولهﷺ:" **الدُّنْيَا مَتَاعٌ**" والمتاع ما ليس له بقاء، أي: شيء يتمتع به حينا ثم يزول، كما قال تعالى" **قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ**"(٢)، النساء: ٧٧، ولذلك أفاد تنكير المتاع التقليل، ساعده التعبير بالدنيا، وهي من الدنو.

يقول ابن فارس:" (دَنَى) الدَّالُ وَالنُّونُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ يُقَاسُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَهُوَ الْمُقَارَبَةُ. وَمِنْ ذَلِكَ الدَّنِيُّ، وَهُوَ الْقَرِيبُ، مِنْ دَنَا يَدْنُو. وَسُمِّيَتِ الدُّنْيَا لِدُنُوِّهَا "(٣).

وابتداء الحديث بالخبر" **الدُّنْيَا مَتَاعٌ**"، وما يوحي به هذا الخبر من قِصَر مدة الدنيا، وقلة المقام فيها، حث بالغ على سرعة الظفر بخير ما فيها وهي المرأة الصالحة، فكان هذا الخبر تهيئة بليغة لما سيأتي بعده.

---

١ – أخرجه مسلم: كتاب الرضاع، باب: خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، ح(١٤٦٧)، ٢/ ١٠٩٠.
٢ – ينظر: دليل الفالحين: ١٠٧/٣. بتصرف.
٣ – مقاييس اللغة لا بن فارس: بَابُ الدَّالِ وَالنُّونِ وَمَا يَثْلُثُهُمَا فِي الثُّلَاثِيِّ، (دنى)، ٣٠٣/٢.

وقولهﷺ:" **وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**"، عبر فيه بالاسم الظاهر" **الدُّنْيَا**" موضع الضمير لزيادة الإيضاح(١)، وأيضا لتأكيد خيْريَّة المرأة الصالحة.

والمراد بالصالحة:" النقية المصلحة لحال زوجها في بيته المطيعة لأمره"(٢).

واختصاص المرأة بوصف الصلاح؛ " لأنها تحفظ زوجها عن الحرام، وتعينه على القيام بالأمور الدنيوية والدينية، وكل لذة أعانت على لذات الآخرة فهي محبوبة مرضية لله، فصاحبها يلتذ بها من جهة تنعمه وقرة عينه بها، ومن وجهة إيصالها له إلى مرضاة ربه وإيصاله إلى لذة أكمل منها"(٣)؛ فالصلاح وصف جامع لخيري الدنيا والآخرة، وفي هذا زيادة حث على ضرورة الظفر بمن تتصف به، وتأكيد لأحقيتها للخيْريَّة.

وبعد: فالحديث كما سبق إخبار بخيْريَّة المرأة الصالحة، والحث على الظفر بها دون غيرها مما لا ينطبق عليها وصف الصلاح، وقد غلب على سياق الحديث التخصيص بعد التعميم؛ للتأكيد على أهمية الخاص، وزيادته عن أفراد نوعه، وتآزر معه في أداء المعنى الإظهار في موضع الإضمار، وساعدت هذه الألوان على أداء المعنى المقصود، وتمكينه في النفوس على أكمل وجه.

وفي النهاية يمكن الربط بين ما ورد في هذا الحديث وما ورد في القرآن الكريم مما يتقارب معه في المعنى بأن القرآن الكريم تحدث عن الدنيا، وأنها متاع قليل سرعان ما يزول، كما ذكر القرآن الكريم وعدَّد بعض أفراد هذا المتاع كما في قوله تعالى:" **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**" النساء:(١٤)، وجاء البيان النبوي هنا وأفرد واحدا من هذه الأفراد، وهو المرأة الصالحة، وسلط عليه الضوء، وبين خيْريَّته على باقي الأنواع. والله أعلم.

---

١ – دليل الفالحين: ٣/ ١٠٧.

٢ – فيض القدير: ٣/ ٥٤٨.

٣ – السابق– الصفحة.

الخاتمة

يمكن إجمال أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة فيما يلي:

١- تعددت أحاديث الخيْريَّة في الصحيحين ، وتنوعت مقاماتها، فشملت جانبي العبادات والمعاملات؛ مما يدل على اتساع جوانب الخيْريَّة التي يشتمل عليها هذا الدين الحنيف، وأن كل أحد يستطيع تحصيلها حسب ما يتاح له، وهذا مما يتناغى مع مقام الحث الذي وردت عليه معظم أحاديث الخيْريَّة.

٢- تميزت أحاديث الخيْريَّة في الصحيحين بالإيجاز، فجاءت موجزة قوية السبك معبرة عن المعنى.

٣- اتسمت أحاديث الخيْريَّة بالسهولة والوضوح والبعد عن الزخارف اللفظية؛ ولعل ذلك لأن مغزاها التعليم والإرشاد.

٤- كان الأسلوب الخبري هو المسيطر على أحاديث الخيْريَّة؛ وذلك لأنه الأنسب لمقام الترغيب .

٥- تنوعت أحاديث الخيْريَّة بين الترغيب والترهيب، فمنها ما جاء على صورة الترغيب فقط، ومنها ما اشتمل على الترغيب والترهيب ولاءم كل منهما مقامه.

٦- كان للتأكيد بأساليبه المختلفة، وطرقه المتعددة دور مهم في أحاديث الخيْريَّة، والحث على التزام الطرق التي تؤدي إليها.

٧- قلَّت صور المجاز في أحاديث الخيْريَّة؛ ولعل ذلك لأن بلاغتهﷺ بلاغة حقيقة، وليست قائمة على الادِّعاء والخيال الذي يعتمد عليه المجاز؛ فهدفها تمكين المعنى في النفوس على الحقيقة والواقع.

وفي النهاية لا يبقى لي إلا أن أردد ما ذكر د. البيومي نقلا عن الأستاذ/ أحمد حسن الزيات بأن: " بلاغة الرسول ﷺ من صنع الله، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه، وتقصر مقاييسه عن مقياسه، فنحن لا ندرك كنهه، وإنما ندرك أثره، ونحن لا نعلم إنشاءه، وإنما نعلم

خبره"[١].فهو" كلام من أوتي جوامع الكلم ﷺ لا يُحاط بفوائده، يُنفق فيه ذو السعة في العلم على قدر سعته، ومن دونه على قدره، والكل لم يُحصِّلوا من ذلك البحر الزاخر الذي لا يُحاط بأبعاده إلا ما هو في النسبة كنقطة أو أقل منها إلى العالم كله"[٢].

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل.

١ – البيان النبوي د/ محمد رجب البيومي، ص٣٤٥.
٢ – الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم: ٣/ ٣٤٥.

قائمة المصادر والمراجع

١) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د/ صباح دراز، مطبعة الأمانة، ط١.
٢) الأسلوب أ/ أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م.
٣) أضواء على البلاغة النبوية: د/ إبراهيم الجعلي، مكتبة الرشد الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم للسبتي، ت/ يحيى إسماعيل، نشر/ دار الوفاء– مصر، ط١، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م.
٥) البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ت/ د/ حفني محمد شرف، نشر/ مكتبة الشباب، القاهرة، مطبعة الرسالة، ط١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م..
٦) البيان النبوي د/ محمد رجب البيومي، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٤٠٧هـ ،١٩٨٧م.
٧) التحبير، د/ محمود توفيق سعد، مكتبة العمروسي، القاهرة.
٨) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت.
٩) الجامع لأحكام القرآن القرطبي، ت/ أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش، نشر/ دار الكتب المصرية– القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م.
١٠) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص، ط: مطبعة السعادة، مصر،ط٢، ١٣٤٢.
١١) الخصائص لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،ط٤.
١٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت/ شاكر، طبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
١٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان، نشر/ دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م.

١٤) رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام لتاج الدين الفاكهاني، ت/ نور الدين طالب، نشر/ دار النوادر، سوريا، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠١٠م
١٥) الزواج في ظل الإسلام لعبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، الدار السلفية للنشر، الكويت، ط٣، ١٩٨٨م.
١٦) سبل السلام للصنعاني، نشر/ دار الحديث.
١٧) سنن أبي داود، ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر/ المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
١٨) سنن الترمذي: ت/ أحمد محمد شاكر، نشر/ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر،ط٣، ١٣٩٥هـ /١٩٧٥م.
١٩) شرح سنن أبي داوود للعيني: ت/ خالد إبراهيم المصري، مكتبة الرشد، الرياض،ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
٢٠) شرح النووي على مسلم، نشر/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ .
٢١) الشوقيات، طبعة مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة
٢٢) الصحاح للجوهري: ت/ أحمد عبد الغفور عطار، نشر/ دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٩م.
٢٣) صحيح البخاري، ت/ محمد زهير بن ناصر ، نشر/ دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ .
٢٤) صحيح مسلم، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
٢٥) صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان لناصر الدين الألباني، نشر/ دار الصميعي، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م.
٢٦) الطراز للعلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٢٧) عروس الأفراح في تلخيص المفتاح للسبكي، ت/ د/ عبد الحميد هنداوي، نشر/ المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٨) عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد للسيوطي، ت/ د/ سلمان القضاة، نشر/ دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
٢٩) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، نشر/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٠) الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري، ت/ علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر/ دار المعرفة- لبنان، ط٢.
٣١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، نشر/ دار المعرفة، بيروت، طبعة١٣٧٩هـ.
٣٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ت/ الشيخ/ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، نشر/ مؤسسة النشر الإسلامي بـ(قم)، ط١، ١٤١٢هـ.
٣٣) فيض الباري على صحيح البخاري للكشميري، ت/ محمد بدر عالم الميرتهي، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٣٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، نشر/ المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.
٣٥) قراءة في الأدب القديم، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة.
٣٦) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: ت/ د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، نشر/ دار ومكتبة الهلال.
٣٧) الكشاف للزمخشري، نشر/ دار الكتاب العربي، بيروت،ط٣، ١٤٠٧هـ .
٣٨) الكوكب الوهاج والروض البهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج لمحمد الأمين العلوي الشافعي، نشر/ دار المنهاج، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٩م.
٣٩) لسان العرب لابن منظور، نشر/ دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٤٠) المستدرك على الصحيحين للحاكم، ت/ مصطفى عبد القادر عطا: كتاب : معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب: ذكر فضائل الأمة بعد الصحابة والتابعين، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٤١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت/ شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، نشر/ مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ /٢٠٠١م

٤٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ت/ عبد السلام محمد هارون، نشر/ دار الفكر، عام:١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٤٣) مقدمة في نظرية البلاغة النبوية، د/ عيد بلبع، بلنسية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٤٤) الملخص الفقهي: صالح بن فوزان الفوزان، دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٤٥) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري حمزة محمد قاسم، تصحيح/ بشير محمد عيون، نشر/ مكتبة دار البيان، دمشق، سوريا، ومكتبة المؤيد، الطائف، السعودية، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م.

٤٦) من بلاغة النبيﷺ في بيانه عن المرأة، دراسة في الصحيحين، د/ سعيد جمعة، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالقاهرة، عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٤٧)

٤٨) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ت/ طاهر أحمد الزاوي، محمود الطناحي، نشر/ المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٤٩) نيل الأوطار للشوكاني، ت/ عصام الدين الصبابطي، نشر/ دار الحديث، مصر، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.